

الباب الأول

حروب وأسفار

قتال الإفرنج

معركة قنسرين ولم يكن القتل في ذلك المصاف في المسلمين كثيراً. وكان وصل من الإمام الراشد بن المسترشد رحمه الله، ابن بشر رسولاً إلى أتاك يستدعيه. فحضر ذلك المصاف وعليه جو شن مذهب، فطعنه فارس من الإفرنج، يقال له ابن الدقيق، في صدره أخرج الرمح من ظهره رحمه الله، بل قتل من الإفرنج خلق كثير .

وأمر أتاك رحمه الله، فجمعت رؤوسهم في حقل مقابل الحصن، فكانت قدر ثلاثة آلاف رأس ثم إن ملك الروم عاد خرج إلى البلاد في سنة اثنتين وثلاثين وخمس مائة، واتفق هو والإفرنج خذلهم الله، واجمعوا على قصد شيزر ومنازلتها. فقال لي صلاح الدين ماترى ما فعله هذا الولد المشكل " ؟ يعني ابنه شهاب الدين احمد قلت " وأي شيء فعل " ؟ قال " أنفذ إلي يقول أبصر من يتولى بلدك " . قلت وأي شيء عملت قال " نفذت إلى أتاك أقول تسلم موضعك " . قلت " بمس ما فعلت " ! أما يقول لك أتاك لما كانت لحماً أكلها، ولما صارت عظماً رماها علي " ؟ قال " فأني شيء أعمل " ؟ قلت أنا جالس فيها . فإن سلم الله تعالى كان بسعادتك، ويكون وجهك ابيض عند صاحبك . وإن اخذ الموضع وقتلنا كان بآجالنا، وأنت معذور " قال " ما قال لي هذا القول أحد غيرك " وتوهمت أنه يفعل ذلك، فحفلت الغنم والدقيق الكثير والسمن وما يحتاجه المحاصر، فأنا في داري المغرب ورسوله جاءني قال " يقول لك صلاح الدين نحن بعد غدٍ سائرون إلى الموصل فاعمل شغلك للمسير " . فورد على قلبي من هذا هم عظيم وقلت " اترك أولادي واخوتي وأهلي في الحصار وأسير إلى الموصل " ؟ فأصبحت ركبت إليه وهو في الخيام استأذنته في الرواح إلى شيزر لاحضر لي نفقة ومالاً نحتاج إليه في الطريق . فأذن وقال " لا تبطئ " ، فركبت ومضيت إلى شيزر، فبدأ منه ما أوحش قلبي، وعرك ابني فنازل، فنفذ إلى داري فرفع كل ما فيها من الخيام والسلاح والرحل وقبض على أمر أحمي وتتبع أصحابي فكانت نكبة كبيرة رائعة .

أسامة في دمشق

(١١٣٨ - ١١٤٤ م)

فاقتضت الحال مسيري إلى دمشق، ورسل أتاك تتردد في طلبي إلى صاحب دمشق فأقامت فيها ثماني سنين، وشهدت فيها عدة حروب، واجزل لي صاحبها العطية والإقطاع وميزني بالتقريب والإكرام يضاف ذلك إلى

اشتمال الأمير معين الدين رحمة الله علي وملازمي له ورعايته لأسبابي . ثم جرت أسباب أوجبت مسيري إلى مصر، فضع من حوائج داري وسلاحي ما لم أقدر على حمله، فرطت في أملاكي ما كان نكبة أخرى. كل ذلك والأمير معين الدين رحمه الله محسن مجمل كثير التأسف على مفارقتي مقرّ بالعجز عن أمري، حتى انه انفذ إلي كاتبه الحاجب محمود المسترشدي رحمه الله قال " والله لو أن معي نصف الناس لضربت بهم النصف الآخر، ولو أن معي ثلثهم لضربت بهم الثلثين وما فارقتك . لكن الناس كلهم قد تمالوا علي ومالي بهم طاقة. وحيث كنت فالذي بيننا من المودة على أحسن حاله " . ففي ذلك أقول

معين الدين كم لك طوق منّ ... يجيدي مثل أطواق الحمام
يعبدي لك الإحسان طوعاً ... وفي الإحسان رقّ للكرام
فصار إلى مودتك انتساي ... وإن كنت العظامي العصامي
ألم تعلم بأني لانتماي ... إليك رمى سوادي كل رام
ولولا أنت لم يصحب شماسي ... لقسر دون إعدار الحسام
ولكن خفت من نار الأعادي ... عليك فكنت إطفاء الضرام

أسامة في مصر

(١١٤٤ - ١١٥٤م)

ثورة في الجيش المصري

فكان وصولي إلى مصر يوم الخميس الثاني من جمادى الآخر سنة تسع وثلاثين وخمس مائة. فأقربني الحافظ لدين الله ساعة وصولي، فخلع علي بين يديه، ودفع لي تحت ثياب ومائه دينار وخولني دخول الحمام، وأنزلي في دار من دور الأفضل بن أمير الجيوش في غاية الحسن وفيها بسطها وفراشها ومرتبة كبيرة آلتها من النحاس، كل ذلك لا يستعاد منه شيء، وأقمت بها مدة إقامة في إكرام واحترام وإنعام متواصل وإقطاع زاج. فوقع بين السودان، وهم في خلق عظيم، شر وخلف بين الريمانية، وهم عبيد الحافظ، وبين الجيوشية والإسكندرية والفرحية، فكان الريمانية في جانب، وهؤلاء كلهم في جانب متفقين على الريمانية وانضاف إلى الجيوشية قوم من صبيان الخاص. فاجتمع من الفريقين خلق عظيم، وغاب عنهم الحافظ، وترددت إليهم رسله، وحرص على إن يصلح بينهم. فما أجابوا إلى ذلك، وهم معه في جانب البلد، فأصبحوا التقوا في القاهرة فاستظهرت الجيوشية أصحابها على الريمانية فقتلت منهم في سويقة وأمير الجيوش ألف رجل حتى سدوا السويقة ونحن نبيت ونصبح بالسلاح خوفاً من ميلهم علينا، فقد كانوا فعلوا ذلك قبل طلوعي إلى مصر .

وظن الناس لما قتل الريمانية أن الحافظ ينكر ذلك ويوقع بقاتليهم، وكان مريضاً على شفى، فمات رحمه الله بعد يومين، وما انتطح فيها عنزان.

خروج ابن السلار على الظافر

وجلس بعده الظافر بأمر الله وهو أصغر أولاده، واستوزر نجم الدين بن مصال وكان شيخاً كبيراً. والأمير سيف الدين أبو الحسن علي بن السلار رحمه الله إذ ذاك في ولايته، فحشد وجمع وسار إلى القاهرة ونفذ إلى داره. فجمع الظافر بأمر الله الأمراء في مجلس الوزارة، ونفذ إلينا زمام القصور يقول " يا أمراء هذا نجم الدين وزيري ونائي، فمن كان يطيعني فليطعه ويتمثل أمره " فقال الأمراء " نحن ممالك مولانا سامعون مطيعون " فرجع الزمام بهذا الجواب.

فقال أمير من الأمراء شيخ يقال له لكرون " يا أمراء، نترك علي بن السلار يقتل "؟ قالوا " لا والله " . قال " فقوموا " . فنفروا كلهم وخرجوا من القصر شدوا على خيلهم وبغالهم وخرجوا إلى معونة سيف الدين بن السلار فلما رأى الظافر ذلك وغلب عن دفعه أعطى نجم الدين بن مصال مالا كثيراً وقال " اخرج إلى الحوف، واجمع واحشد وانفق فيهم وادفع ابن السلار " فخرج لذلك. ودخل ابن السلار القاهرة ودخل دار الوزارة، واتفق الجند على طاعته وأحسن إليهم، وأمرني أن آيت أنا وأصحابي في داره، وافردني موضعاً في الدار أكون فيه. وابن مصال في الحوف قد جمع من لواته ومن جند مصر ومن السودان والعربان خلقاً كثيراً. وقد خرج عبس ركن الدين، وهو ابن امرأة علي بن السلار، ضرب خيمة في ظاهر مصر، فعدت سرية من لواته ومعهم نسيب لابن مصال وقصدوا مخيم عباس، فانهزم عنه جماعة من المصريين، ووقف هو وغلماناه ومن صبر معه من الجند ليلة مخايبتهم.

وبلغ الخبر إلى ابن السلار فاستدعاني في الليل وأنا معه في الدار، وقال " هؤلاء الكلاب (يعني جند مصر) قد شغلوا الأمير (يعني عباساً) بالفوارغ، حتى عدا إليه قوم من لواتة سباحة، فانهزموا عنه ودخل بعضهم إلى بيوتهم بالقاهرة، والأمير موافقهم " . قلت " يا مولاي، نركب إليهم في سحر، وما يضحي النهار إلا وقد فرغنا منهم، إن شاء الله تعالى " . قال " صواب أبكر في ركوبك " . فخرجنا إليهم من بكرة وفلم يسلم منهم إلا من سبحت به فرسه في النيل، وأخذ نسيب بن مصال وضرب رقبة .

هزيمة ابن مصال

وجمع العسكر مع عباس وسيره إلى ابن مصال، على دلاص فكسرهم وقتل ابن مصال وقتل من السودان وغيرهم سبعة عشر ألف رجل، وحملوا رأس ابن مصال إلى القاهرة، ولم يبق لسيف الدين من تعانده ولا تشاqqه .

وخلع عليه الظافر خلع الوزارة ولقبه الملك العادل، وتولى الأمور .

الخليفة يكيد لوزيره الجديد

كل ذلك والظافر منحرف عنه، مضمهر له الشر. فعمل على قتله وقرر مع جماعة من صبيان الخاص وغيرهم ممن استمالهم وانفق فيهم أن يهجموا داره ويقتلوه وكان شهر رمضان، والقوم قد اجتمعوا في دار بالقرب

من دار الملك العادل ينتظرون توسط الليل وافترق أصحاب العادل، وأنا تلك اليه عنده. فلما فرغ الناس من العشاء وافترقوا، وقد بلغه الخبر من بعض المعاملين عليه، احضر رجلين من غلمانه وأمرهم ان يهجموا عليهم في الدار التي هم فيها مجتمعون . وكانت الدار، لما أراد الله من سلامة بعضهم، لها بابا نالوا احد قريب من دار العادل والآخر بعيد. فهجمت الفرقة الواحدة من الباب القريب قبل وصول أصحابهم إلى الباب لآخر فأنهمزوا وخرجوا من ذلك الباب. وجاعني منهم في الليل من صبيان الخاص نحو عشرة رجال كانوا أصدقاء غلماني نخبوءهم. وأصبح البلد فيه الطلب لأولئك المنهزمين، ومن ظفر بهم قُتل.

أسامة يخلص زنجيا

وعجيب ما رأيت في ذلك اليوم أن رجلاً من السودان الذين كانوا في العملة انهزم إلى علو داري والرجال بالسيوف خلفه، فأشرف على القاعة من ارتفاع عظيم. وفي الدار شجرة نبق كبيرة، فقفز من السطح إلى تلك الشجرة فثبت عليها، ثم نزل ودخل من كم مجلس قريب منه فوطئ على منارة نحاس فكسرها ودخل إلى خلف رحل في المجلس اجنبي فيه. وشرف أولئك الذين كانوا خلفه، فصحت عليهم وأطلعت إليهم الغلمان دفعوهم، ودخلت الى ذلك الاسود فنزع كساء كان عليه وقال(خذه لك). قلت(اكثر الله خيرك ما احتاجه)، واخرجه وسريت معه قوما من غلماني فنجا.

مزور التوقيع تضرب رقبتة

وجلست في ضفة في دهليز داري، فدخل علي شاب سلم وجلس، فرأيتة حسن المحاضرة، هو يتحدث وإنسان استدعاه فمضى معه ونفذت خلفه غلاماً يبصر لماذا استدعى. وكنت بالقرب من دار العادل، فساعة ما حضر ذلك الشاب بين يدي العادل أمر بضرب رقبتة فقتل وعاد الغلام، وقد استخبر عن ذنبه، فقيل له(كان يزور التوقيع). فسبحان مقدر الأعمار ومؤقت الآجال. وقُتل في الفتنة جماعة من المصريين والسودان.

أسامة بمهمة حربية لدى نور الدين

تقدم إلى الملك العادل رحمه الله، بالتجهيز للمسير إلى الملك العادل نور الدين رحمه الله، وقال " تأخذ معك مالاً وتمضي إليه لينازل طبرية، ويشغل الفرنج عنا لنخرج من ها هنا نخرّب غزة " . وكان الإفرنج خذطم الله قد شرعوا في عمارة غزة ليحاصروا عسقلان قلت " يا مولاي، فإن اعتنر أو كان له من الأشغال ما يعوقه أي شيء تأمري " ؟ قال " إن نزل على طبرية، فأعطه المال الذي معك وإن كان له مانع، فديون من قدرت عليه من الجند وأطلع إلى عسقلان أقم بها في قتال الإفرنج، واكتب إلي بوصلك لآمرك بما تعمل " . ودفع إلي ستة آلاف دينار مصرية، وحمل حمل ثياب ديبقي وسقلاطون ومسنجب دمياطي وعمائم. ورتب

معي قوما من العرب أدلاء وسرت وقد أراح علة سفري بكل ما أحججه من كثير وقليل.
فلما دنونا من الجفر لي الأدلاء " هذا مكان لا يكاد يخلو من الإفرنج ". فأمرت اثنين من الأدلاء ركبا
مهريين وسارا قدامنا إلى الجفر. فما لبثنا أن عادا والمهاري تطير بهما، وقالوا " الفرنج على الجفر " !فوقفت
وجمعت الجمال التي عليها ثقلي ورفاقا من السفارة كانوا معي وردتهم إلى الغرب. وندبت ستة فوارس من
ماليكي وقلت " تعلمونا، وأنا في إثركم " فساروا يركضون وأنا أسير خلفهم، فعاد إلي واحد منهم وقال "
ماعلى الجفر أحد، ولعلمهم أبصروا عرباناً ". وتنازع هو الأدلاء، فنذت من رد الجمال وسرت. فلما
وصلت الجفر، وفيه مياه وعشب وشجر، فقام من ذلك العشب رجل عليه ثوب أسود فأخذناه، وتفرق
أصحابي فأخذوا رجلاً آخر وامرأتين وصبياناً فجاءت امرأة منهن مسكت ثوبي وقالت " يا شيخني أنا في
حسبك ". قلت " أنت آمنة مالك ؟ "

قالت قد أخذ أصحابك لي ثوباً وناهقاً وناجماً وخرزه قلت لغلماني من أخذ شيئاً يرده فأحضر غلاماً قطعه
كساء لعلها طول ذراعين. قالت هذا الثوب. وأحضر آخر قطعه سند روس. قالت هذه الخرزة قلت فالحمار
والكلب قالوا الحمار قد ربطوا يديه ورجليه، وهو مرمي في العشب، والكلب مفلوت يعدو من مكان إلى
مكان فجمعتهم ورأيت بهم من الضر أمراً عظيماً قد يبست جلودهم على عظامهم قلت أيش أنتم؟ قالوا نحن
من بني أبي وبنو أبي فرقة من العرب من طيء لا يأكلون إلى الميتة ويقولون نحن خير العرب، ما فينا مجذوم
ولا أبرص ولا زمن ولا أعمى. وإذا نزل بهم الضيف ذبحوا له وأطعموه من غير طعامهم. قلت ما جاء بكم إلى
ها هنا؟ قالوا لنا يسمى كئول ذرة مطمورة جننا نأخذها. قلت وكم لكم علينا. من عيد رمضان لنا ها
هنا، ما رأينا الزاد بأعيننا. قلت فمن أين تعيشون قالوا من الرمة يعنون العظام البالية الملقاة ندقها ونعمل
عليها الماء وورق القطف شجر بتلك الأرض ونقوت به قلتفكلا بكم وحر كم؟ قالوا الكلاب نطعمهم من
عيشنا، والحمر تأكل الحشيش. قلت فلم لا دخلتم إلى دمشق؟ قالوا خفنا الوباء ولا وباء أعظم مما كانوا
فيه! وكان ذلك بعد عيد الأضحى. فوقت حتى جاء الجمال، وأعطيتهم من الزاد الذي كان معنا. وقطعت
فوطة كانت على رأسي أعطيتها للمرأتين، فكادت عقولهم تزول من فرحهم بالزاد وقلت لا تقيموا ها هنا
يسبوكم الإفرنج

فطنة دليل

ومن طريف ما جرى لي في الطريق إنني نزلت ليلة أصلي المغرب والعشاء قصراً وجمعاً، وسارت الجمال
فوقفت على رفعة من الأرض وقلت للغلمان تفرقوا في طلب الجمال، وعودوا إلي، فأنا ما أزول من مكاني
فتفرقوا وركضوا كذا وكذا فما رأوهم، فعادوا كلهم إلي وقالوا ما لقيناهم، ولا ندري كيف مضوا
فقللتستعين بالله تعالى ونسبر على النوء فسرنا ونحن قد أشرفنا من انفرودنا عن الجمال في البرية على أمر
صعب. وفي الأدلاء رجل يقال له جزية فيه يقظة وفطنه، فلما استبطأنا علم أنا قد تمنا عنهم، فأخرج قداحة

وجعل يقدر وهو على الجملة، والشرار من الرند يتفرق كذا وكذا فرأيناه على البعد فقصدنا النار حتى لحقناهم، ولولا لطف الله وما ألهمه ذلك الرجل كنا هلكنا.

خرج المال يضيع

ومما جرى لي في تلك الطريق أن الملك العادل رحمه الله قال لي لا تعلم الأدلاء الذين معك بالمال فجعلت أربعة آلاف دينار في خرج على بغل سروجي محبوب معي وسلمته إلى غلام وجعلت ألفي دينار ونفقه لي وسر فسار دنائير مغربية في خرج على حصان محبوب معي سلمته إلى غلام، فكنت إذ نزلت جعلت الإخراج في وسط بساط، وردت طرفيه عليها، وبسطت فوقه بساطاً آخر، وأنا على الإخراج وأقوم وقت الرحيل قبل أصحابي. يجيء الغلمان اللذان معهما الخراجان فيتسلماهما، فإذا شداهما على الجنايب ركبت وأيقظت أصحابي تممنا بالرحيل. فترنا ليله في تيه بني إسرائيل، فلما قمت جاء الغلام الذي معه البغل الخجوب أخذ الخرج وطرحه على وركي البغل ودار يريد يشده بالسموط، فزل البغل وخرج يركض وعليه الخرج، فركبت حصاني، وقد قدمه الركابي، وقلت لواحد من غلماني أركب أركب. وركضت خلف البغل فما لحفته وهو كأنه حمار وحش، وحصاني قد أعبى من الطريق ولحقني الغلام، فقلت اتبع البغل كذا فمضى وقال والله يا مولاي ما رأيت البغل، ولقيت هذا الخرج قد شلته. فقلت للخرج كنت أطلب، والبغل أهون مفقود. ورجعت إلى المتزلة وإذا البغل قد جاء يركض دخل في طوالة الخيل ووقف فكأنه ما كان قصده إلا تضييع أربعة آلاف دينار.

مقابلة نور الدين

ووصلنا في طريقنا إلى بصرى فوجدنا الملك العادل نور الدين رحمه الله على دمشق. وقد وصل إلى بصرى الأمير أسد الدين شيركوه رحمه الله فسرت معه إلى العسكر، فوصلته ليله الاثنين وأصبحت تحدثت مع نور الدين بما جئت به، فقال لي يا فلان، أهل دمشق أعداء والإفرنج أعداء، ما آمن منهما إذا دخلت بينهما. قلت له فتأذن لي أن أديون من محرومي الجند قوماً آخذهم وأرجع، وتنفذ معي رجلاً من أصحابك في ثلاثين فارساً ليكون الاسم لك. قال افعل فديونت إلى الاثنين الآخر ثمان مائة وستين فارساً وأخذتهم وسرت في وسط البلاد الإفرنج نزل بالبوق ونرحل بالبوق.

الشق في مسجد الرقيم

وسير معي نور الدين الأمير عين الدولة اليارقي في ثلثين فارساً فاجتزت في طريقي بالكهف والرقيم فنزلت فيه ودخلت صليت في المسجد ولم أدخل في ذلك المضيق الذي فيه. فجاء أمير من الأتراك الذين كانوا معي يقال له برشك يريد الدخول في ذلك الشق الضيق. قلت أي شيء تعمل في هذا؟ صل برا قال لا إله إلا الله، أنا حرام إذا ادخل في ذلك الشق الضيق قلت أي شيء تقول، قال هذا الموضع لا يدخل فيه ولد زنا - ما

يستطيع الدخول. فأوجب قوله أن قمت دخلت في ذلك الموضع صليت وخرجت وأنا الله يعلم - ما اصدق ما قاله، وجاء أكثر العسكر فدخلوا وصلوا. ومعى في الجند براق الزبيدي معه عبد له أسود دين كثير الصلاة، أدق ما يكون من الرجال أذنبهم. فجاء إلى ذلك الموضع، وحرص بكل حرص على الدخول، فما قدر يدخل فبكى المسكين وتوجع وتحسر، وعاد بعد الغلبة عن الدخول.

موقعة مع الإفرنج في عسقلان

فلما وصلنا عسقلان سحر، ووضعنا أثقالنا عند المصلى، صبحونا كذا الإفرنج عند طلوع الشمس، فخرج إلينا ناصر الدولة ياقوت والى عسقلان، فقالا لرفعوا أرفعوا أقتالكم قلت تخاف لا يغلبونا الإفرنج عليها قال نعم قلت أنت تخف هم يرونا في البريه ويعارضونا إلى أن وصلنا عسقلان ما خفناهم نخافهم الآن ونحن عندى مدينتنا؟ ثم أن الإفرنج وقفوا على بعد ساعة، ثم رجعوا إلى بلادهم جمعوا لنا وجاؤنا بالفارس والراجل والخيـم يريدون منازل عسقلان، فخرجنا إليهم، وقد خرج راجل عسقلان، فدرت على سرب الرجالة وقتلتنا صاحبنا ارجعوا إلى سوركم ودعونا وإياهم، فإن نصرنا عليهم فأنتم تلحقونا، وإن نصرنا علينا كنتم أنتم سالمين عند سوركم فامتنعوا من الرجوع فتركتهم ومضيت إلى الإفرنج، وقد حطوا خيامهم ليضربوها فاحتطنا بهم وعجلناهم عن طي خيامهم فرموها كما هي منشوره وساروا راجعين. فلما انفسحوا عن البلد تبعهم من الطقوليين أقوام ما عندهم منعة ولا غناء. فرجع الإفرنج حملوا على أولئك فقتلوا منهم نفراً فأنزمت الرجالة الذين رددتهم فما رجعوا ورموا تراسهم. ولقينا الإفرنج فرددناهم ومضوا عائدين إلى بلادهم وهي قريه من عسقلان. وعاد الذين انهزموا من الرجالة يتلأمون، وقالوا كان ابن منقذ أخبر منا . قال لنا ارجعوا ما فعلنا حتى انهزمنا وافضحنا.

موقعة أخرى في بيت جبريل

وكان أخي عز الدولة أبو الحسن علي رحمه الله في جملة من سار معى من دمشق هو وأصحابه إلى عسقلان. وكان رحمه الله من الفرسان المسلمين يقاتل للدين لا الدنيا. فخرجنا يوماً من عسقلان نريد الغارة على بيت جبريل وقتالها فوصلنا وقتلناهم. ورأيت عند رجوعنا على البلدة غلة كبيره، فوقف في أصحابي وقد حنا ناراً وطرحناها في البيادر وصرنا ننتقل من موضع إلى موضع، ومضى العسكر تقدمني. فاجتمع الإفرنج لعنهم الله من تلك الحصون، وهي كلها متقاربة وفيها خيل كثيره للإفرنج لمعاداة عسقلان ومراوحتها وخرجوا على أصحابنا.

فجاءني فارس منهم يركض وقال قد جاء الإفرنج افسرت إلى صاحبنا وقد وصلهم أوائل الفرنج وهم لعنهم الله، أكبر الناس احترازاً في الحرب فصعدوا على الرابية وقفوا عليها. وصعدنا نحن على الرابية مقابلهم وبين الرابيتين فضاء، أصحابنا المنقطعون وأصحاب الجنائب عبروا تحتهم، لا ينزل إليهم منهم فارس خوفاً من كمين أو مكيدة، ولو نزلوا أخذوهم عن آخرهم نحن مقابلهم في قلة، وعسكرنا قد تقدمنا منهزمين. وما زال

الإفرنج وقوفا على تلك الرابية إلى أن انقطع عبور أصحابنا ساروا إلينا فاندفعنا بين أيديهم والقتال بيننا لا يجدون في طلبنا، ومن وقع أخذوه ثم عادوا عنا. وقدر الله سبحانه لنا بالسلامة باحترازهم. ولو كنا في عددهم ونصرنا عليهم كما نصرنا كنا أفيناهم.

مهاجمة بينى

فأقامت بعسقلان لخاربة الفرنج أربعة أشهر هجمنا فيها مدينة بينى وقتلنا فيها نحو مائة نفس أخذنا منها أسارى.

مقتل أخي أسامه

وجاءني بعد هذه المدة كتاب الملك العادل رحمه الله يستدعيني فسرت إلى مصر وبقي أخي عز الدولة أبو الحسن علي رحمه الله بعسقلان. فخرج عسكرها إلى قتال غزة فأستشهد رحمه الله، وكان من علماء المسلمين وفرسانهم وعبادهم.

اغتيال ابن السلار

وأما الفتنة التي قتل فيها الملك العادل بن السلار رحمه الله فإنه جهز عسكرا إلى بليسي ومقدمه ابن امرأته ركن الدولة عباس بن أبي الفتح تميم بن باديس لحفظ البلاد من الإفرنج ومعه ولده ناصر الدين نصر بن عباس رحمه الله فأقام مع أبيه في العسكر أياماً ثم دخل إلى القاهرة بغير إذن من العادل ولا دستور. فأنكر عليه ذلك وأمره بالرجوع إلى العسكر، وهو يظن أنه دخل القاهرة للعب والفرجة وللضجر من مقام العسكر. وابن عباس قد رتب أمره مع الظافر، ورتب معه قوما من غلمانه يهجم بهم على العادل في داره إذ أبرد في دار الحرام ونام فيقتله. وقرر مع أستاذ من أستاذي دار العدل أن يعلمه إذا نام، وصاحبه الدار امرأة العادل جدته، فهو يدخل إليها بغير أستاذان. فلما نام أعلمه ذلك الأستاذ بنومه، فهجم عليه بالبيت الذي هو نائم فيه، ومعه ستة من غلمانه فقتلوه رحمه الله وقطع رأسه وحمله الظافر. وذلك في يوم الخميس السادس من المحرم سنة ثمان وأربعين وخمس مائه، وفي دار العادل من مماليكه وأصحاب النوبة نحو من ألف رجل، لكنهم في دار السلام، وهو قتل في دار الحرم فخرجوا من الدار ووقع القتال بينهم وبين أصحاب الظافر وابن عباس إلى أن رفع رأس العادل على الرمح، فساعة رأوه انقسموا فرقتين فرقه خرجت من باب القاهرة إلى عباس لخدمته وطاعته وفرقه رمت السلاح وجاءوا إلى بين يدي نصر ابن عباس قبلوا الأرض ووقفوا في خدمته.

عباس يتولى الوزارة

وأصبح والده عباس دخل القاهرة وجلس في دار الوزارة، وخلع عليه الظافر وفوض إليه الأمر، وابنه نصر مخالصة ومعاشره، وأبو العباس كاره لذلك مستوحش من ابنه لعلمه بمذهب القوم في ضربهم بعض الناس ببعض حتى يفنوهم ويجوزوا كلما لهم حتى يتفانوا، فأحضراني ليله وهم في خلوه يتعاتبان وعباس يرد عليه الكلام وابنه مطرق كأنه نمر يرد عليه بعد كلمة يشتاط منها عباس ويزيد في لومه وتأنيبه. فقلت لعباس يا مولاي الأفضل كم تلوم مولاي ناصر الدين وتوبخه وهو ساكت؟ اجعل الملامة لي، فأنا معه في كل ما يعمله، ما أتبرأ، من خطأ ولا صوابه، أي شيء هو ذنبه؟ ما أساء إلى أحد من أصحابك، ولا فرط في شيء من مالك، ولا قدح في دولتك خاطر بنفسه حتى نلت هذه المنزلة، فما يستوجب منك الأثمة، فأمسك عنه والده ورعى لي ابنه ذلك.

الخليفة يجرش ابن عباس على أبيه

وشرع الظافر مع ابن عباس في حمله على قتل أبيه، ويصير في الوزارة مكانه وواصله بالعطايا الجزيله فحضرته يوماً وقد أرسل إليه عشرين صينية فضه فيها عشرون ألف دينار ثم أغفله أياماً وحمل إليه من الكسوات من كل نوع وما لا رأيت مثله مجتمعاً قبله، وأغفله أياماً، وبعث إليه خمسين صينية فضه فيها خمسون ألف دينار، وأغفله أياماً، وبعث إليه ثلاثين بغلاً ورحلاً وأربعين جملاً بعددها وغراترها وحبالها. وكان يتردد بينهما رجلاً يقال له مرتفع بن فحل وأنا مع ابن عباس لا يفسح لي في الغيبة عنه ليلاً ولا نهاراً أنام على رأس محدته. فكنت عنده ليله وهو في دار الشابوره وقد جاء مرتفع ابن فحل فحدثت معه إلى ثلث الليل، وأنا معتزل عنهما ثم أنصرف فاستدعاني وقال، أين أنت قلت عند الطاقة أقرأ القرآن فإني اليوم ما تفرغت اقرأ فابتدأ يفتحنني بشيء مما كان فيه ليصير ما عندي في ذلك يريد بي أن أقوي عزمه على سوء ما قد حمله عليه الظافر فقلت يا مولاي لا يستزلك الشيطان وتنخدع لمن يغرك، فما قتل واللك مثل قتل العادل، فلا تفعل شيء تلعن عليه إلى يوم القيامة. فأطرق وقاطعني الحديث ونمنا. فاطلع والده على الأمر فإلفه واستماله، وقرر معه قتل الظافر .

الوزير يغتال الخليفة

وكانا يخرجوا في الليل متنكرين، وهما أتواب، وسنهما واحد فدعاه إلى داره، وكانت في سوق السيوفيين، ورتب من أصحابه نفرًا في جانب الدار. فلما أستقر به المجلس خرجوا عليه فقتلوه. وذلك ليله الخميس سلخ الحرم سنة تسع وأربعين وخمس مائه، ورماه في جب في داره وكان معه خادم له أسود لا يفارقه يقال له سعيد الدولة فقتلوه، وأصبح عباس جاء إلى القصر كالعاده للسلام يوم الخميس فجلس في خزانه في مجلس الوزارة كأنه ينتظر جلوس الظافر للسلام، فلما جاوز وقت جلوسه استدعى زمام القصر وقال ما لمولانا ما جلس للسلام؟ فلبد الزمام في الجواب، فصاح عليه وقال مالك لا تجاوبني قال يا مولاي مولانا لاندرى أين هو قال مثل مولانا يضيع ارجع فاكشف الحال فمضى ورجع وقال ما وجدنا مولانا فقال عباس ما يبقى

الناس بلا خليفة ادخل إلى الموالي إخوته يخرج منهم واحد نبايعه فمضى وعاد وقال الموالي يقولون لك مالنا في الأمر شيء، والده عزله عنا وجعله في الظافر، والأمر لولده بعده قال أخرجه حتى نبايعه.

مبايعة ابن الظافر

وعباس قتل الظافر وعزم على أن يقول إخوته قتله ويقتلهم به فخرج ولد الظافر وهو صبي محمول على كتف أستاذ من أستاذي القصر، فأخذ عباس فحمله وبكى الناس ثم دخل به وهو حامله إلى مجلس أبيه وفيه أولاد الحافظ الأمير يوسف والأمير جبريل وأبن أخيهم الأمير ابو البلقي.

الإجهاز على أسرة الخليفة

ونحن في الرواق جلوس، وفي القصر أكثر من ألف رجل من المصريين فما راعنا الأفواج قد خرج من المجلس إلى القاعة، وصوت السيوف على إنسان . فقلت لغلّام لي ارمني " ابصر من هذا المقتول " . فمضى ثم عاد وقال " ما هؤلاء مسلمون ! هذا مولاي أبو الأمانة (يعني الأمير جبريل) قد قتلوه، وواحد قد شق بطنه يجذب مصارينه " . ثم خرج عباس وقد اخذ راس الأمير يوسف تحت إبطه ورأسه مكشوف، وقد ضربه بسيف والدم يفور منه وأبو البقي ابن أخيه مع نصر بن عباس فادخلوهما في خزانة في القصر وقتلوهما، وفي القصر ألف سيف مجردة. وكان ذلك اليوم من أشد الأيام التي مرت بي، لما جرى فيه من البغي القبيح الذي ينكره الله تعالى وجميع الخلق .

بواب يموت جزعا

وكان من طريف ما جرى ذلك اليوم ان عباسا لما أراد الدخول إلى المجلس وجد بابه قد قفل من داخل. وكان يتولى فتح المجلس وغلقه أستاذ شيخ يقال له أمين الملك، فاحتالوا في الباب حتى فسحوه ودخلوا فوجدوا ذلك الأستاذ خلف الباب وهو ميت وفي يده المفتاح .

عباس يقمع الثورة

وأما الفتنة التي جرت بمصر ونصر فيها عباس على جند مصر فانه لما فعل بأولاد الحافظ رحمة الله ما فعل جفت عليه قلوب الناس واضمروا فيها العداوة والبغضاء وكاتب من في القصر من بنات الحافظ فارس المسلمين أبا الغارات طلائع بن رزبك رحمة الله يستصرخون به ! وحشد وخرج من ولايته يريد القاهرة، فأمر عباس فعمرت المراكب وحمل فيها الزاد والسلاح والخزانة وتقدم إلي العسكر بالركوب والمسير معه وذلك يوم الخميس العاشر من صفر سنة تسع وأربعين وأمر ابنه ناصر الدين بالمقام في القاهرة، وقال لي " تقيم معه " .

فلما خرج من داره متواجها إلى لقاء ابن رزيك خامر عليه الجند وغلقوا أبواب القاهرة ووقع القتال بيننا وبينهم في الشوارع والأزقة. وخیالتهم تقاتلنا في الطريق، ورجالتهم يرمنا بالنشاب والحجارة من على السطوحات، والنساء والصبيان يرمونا بالحجارة من الطاقات. ودام بيننا وبينهم القتال من ضحى نهار إلى العصر. فاستظهر عليهم عباس وفتحوا أبواب القاهرة وانهمزوا وحقهم عباس إلى أرض مصر فقتل منهم من قتل وعاد إلى داره وأمره ونهيه. وأمر بإحراق البرقية لأنها مجمع دور الأجناد، فطلقت الأمر معه وقلت " يا مولاي، إذا وقعت النار أحرقت ما تريد ولا ما تريد، وبلعت عن أن تطفئها " وردد رأيه عن ذلك. وأخذت الأمان للأمير المؤمن بن أبي رماده بعد أن أمر بتلافه واعتذرت عنه، فصفح عن جرمه.

عباس يفر إلى الشام

ثم سكنت تلك الفتنة، وقد أرتاع منها عباس وتحقق عداوة الجند والأمراء وأنه لا مقام له بينهم، وثبت في نفسه الخروج من مصر وقصد الشام إلى الملك العادل نور الدين رحمه الله يستجد به، والرسول بين من في القصور وبين ابن رزيك مترددة، وكان بيني وبينه رحمه الله مودة ومخالطة من حين دخلت ديار مصر فنفذ إلى رسولا يقول لي عباس ما يقدر على المقام بمصر، بل هو يخرج منها إلى الشام وأنا أملك البلاد، وأنت تعرف ما بيني وبينك، فلا تخرج معه فهو بحاجة إليك في الشام يرغبك ويخرجك معه، فالله لا تصحبه، فأنت شريك في كل خير أناله. فكان الشياطين وسوست لعباس بذلك أو توهمه لما يعلمه بيني وبين ابن رزيك من المودة. فأما الفتنة التي خرج فيها عباس من مصر وقتله الإفرنج فانه لما توهم من أمري وأمر ابن رزيك ما توهمه أو بلغه، أحضرتني واستحلفني بالإيمان الغلظة التي لا يخرج منها إنني أخرج معه وأصحبه، ولم يقنع ذلك حتى نفذ في الليل أستاذ داره الذي يدخل على حرمه، أخذ أهلي ووالدي وأولادي إلى داره، وقال لي أنا احمل كلفتهم عنك في الطريق واحملهم مع الودة ناصر الدين. واهتم بأمر سفره بخيله وجماله وبغاله، فكان له مائتا حصان وحجره مجنوبه على أيدي الرجالة كعادتهم بمصر، ومائتا بغل رحل وأربع مائة جمل تحمل أثقاله.

وكان كثير اللهج بالنجوم، وهو معول على السير بالطالع يوم السبت الخامس عشر من الربيع الأول من السنة فحضرته وقد دخل عليه الغلام يقال له عنتر الكبير وهو متولي أمر كبيرها وصغيرها فقال له يا مولاي، أي شيء مرجو من مسيرنا إلى الشام؟خذ خزانك وأهلك وغللمانك ومن تبعك وسر بنا إلى الإسكندرية، نحشد من هناك ونجمع ونرجع إلى ابن رزيك ومن معه. فإن نصرنا عدت إلى دارك وإلى ملكك، وإن عجزنا عنه عدنا إلى الإسكندرية إلى بلد نحتمي فيه ويمتنع على عدونا فنهره وخطأه وكان الصواب معه. ثم أصبح يوم الجمعة استدعاني من بكره، فلما حضرت عنده قلت يا مولاي إذا كنت عندك من الفجر إلى الليل فمتى أعمل شغل سفري قال عندنا رسل من دمشق، تسيرهم وتمضي تعمل شغلك.

المكيدة ضد عباس

وكان قبل ذلك احضر قوما من الأمراء واستحلفهم انهم يحونونه ولا يخامرون عليه، واحضر جماعه من مقدمي العرب من درماء وزريق وجذام وسنيس وطلحه وجعفر ولواته واستحلفهم بالمصحف والطلاق على مثل ذلك فما راعنا وأنا عنده بكره الجمعة، إلا والناس قد لبسوا السلاح وزحفوا إلينا ورؤوسهم الأمراء الذين استحلفهم بالأمس، فأمر بسد دوابه فشدت وأوقفت على باب داره، فكانت بيننا وبين المصريين كالسد لا يصلون إلينا لا زدحام الدواب دوننا. فخرج إليهم غلامه عنتر الكبير كان أشار عليه بذلك الرأي وهو زمامهم، صاح عليهم وشمهم وقال روحوا إلى يوتكم فسيوا الدواب ومضى الركابية والمكارية والجمالون، وبقيت الدواب مهملة ووقع فيها النهب. فقال لي العباس اخرج احضر الأتراك وهم عند باب النصر والكتاب ينفقون فيهم. فلما جنتهم واستدعتهم ركبوا كلهم، وهم في ثمان مائة فارس وخرجوا من القاهرة منهزمين من القتال، وركب المماليك وهم أكثر من الأتراك وخرجوا أيضاً من باب النصر، ورجعت إليه عرفته ثم اشتعلت ياخراج أهلي الذي كان حملهم إلى داره فأخرجتهم واخرجت حرم عباس. فلما خلت الطريق ونهبت تلك الدواب بأجمعها وصل المصريون إلينا فأخرجونا ونحن في قله وهم في خلق كثير. فلما خرجنا من باب النصر وصلوا إلى الأبواب أغلقوها وعادوا إلى دروبنا فهبونا، فأخذوا من قاعة داري أربعين غراره جمالية مخالطة فيها من الفضة والذهب والكسوات شيء كثير. وأخذوا من أصطلي ستة وثلاثين حصاناً وبغله سروجيه بسروجها وعدتها كاملة وخمسة وعشرين جملاً، وأخذوا من إقطاعي من كوم أشفين مائتي رأس بقر للنشابين ألف شيه واهراء غلة. ولما سرنا عن باب النصر تجمعت قبائل العرب الذين استحلفهم وقاتلونا من يوم الجمعة وضحى نهار إلى يوم الخميس العشرين من ربيع الأول فكانوا يقاتلون النهار كله، فإذا جن الليل ونزلنا أغفلونا إلى أن ننام، ثم يركبونا في ماء فارس ويدفعون خيلهم في بعض جوانبنا ويرفعون أصواتهم بالصياح فما نفر من خيلنا وخرج إليهم أخذوه.

أسامة جريح

واقطعت يوماً عن أصحابي وتحتي حصان أبيض هو أردى خيلي، شله الركابي ولا يدري ما يجري، وما معي من السلاح غير سيفي، فحمل علي العرب فلم أجد ما أدفعهم به، ولا يجيني منهم حصاني، وقد وصلتني رماحهم قلت أثب عن الحصان واخذب سيفي أدفعهم. فجمعت نفسي لأثب فتتبع الحصان فوقعت على الحجارة وأرض خشنه فانقطعت قطعه من جلدة رأسي ودخت حتى ما بقيت ادري بما انا فيه فوقعت علي منهم قوم وأنا جالس مكشوف الرأس غائب الذهن وسيفي مرمي بجهازه، فضربني واحد منهم ضربتين بالسيف وقال هات الوزن وأنا لا أدري ما يقول، ثم أخذ حصاني وسيفي. وورآني الأتراك فعادوا إلي، ونفذ لي ناصر الدين بن عباس حصاناً وسيفاً وسرت وأنا لا أقدر على عصابة أشد بها جراحي، فسبحان من لا يزول ملكه. وسرنا مع أحد منا كف زاد، وإذا أردت أشرب ماء ترجلت، شربت بيدي، وقبل أن أخرج بليلة جلست في بعض دهاليز داري على كرسي وعرضوا علي ستة عشر جمل روايا وما شاء الله سبحانه من القرب والسطائح. وعجزت عن حمل أهلي فردتهم من بليس إلى عند الملك الصالح أبي الغارات طلائع ابن

زريك رحمه الله فأحسن إليهم وأنزلهم في دار واجرى لهم ما يحتاجونه .ولما أراد العرب الذين يقاتلونا الرجوع عنا جاءونا يطلبون حسبنا إذا عدنا.

عباس يقتله الإفرنج

وسرنا إلى يوم الأحد ثالث وعشرين ربيع الآخر فصبحنا الإفرنج جمعهم على المليح فقتلوا عباساً وابنه حسام الملك وأسروا ابنه ناصر الدين وأخذوا خزانته وحرمه وقتلوا من ظفروا به، وأخذ أخي نجم الدولة أبا عبد الله محمد رحمه الله أسيراً، وعادوا عنا ونحن قد تحصنا عنهم في الجبال .

مخاطر وادي موسى

فسرنا أشد من الموت في بلاد الفرنج بغير بغداد زاد للرجال ولا علف للخيل إلى أن وصلنا جبال بني فهيد لعنهم الله في وادي موسى، وطلعنا في طرقات ضيقه وعره إلى أرض فسيحة والرجال وشياطين رجيمة من ظفروا به منا منفرد قتلوه.وتلك الناحية لا تخلو من بعض بني ربيعة الأمراء الطائيين، فسألت من ها هنا من الأمراء بني ربيعة؟قالوا منصور بن غدفل وهو صديقي فدفعت لواحد دينارين وقلت أمض إلى المنصور قل له صديقك ابن منقذ يسلم عليك ويقول لك صل إليه بكره، وبتنا في مبيت سوء من خوفهم. فلما أضاء الصبح اخذوا عدتهم ووقفوا على عين وقالوا ما ندعكم تشربون ماءنا ونهلك ونحن بالعطش.وتلك العين تكفي ربيعة ومضر، وكم في أرضهم مثلها، وإنما قصدهم أن ينشئوا الشر بيننا وبينهم ويأخذونا، ونحن فيما نحن فيه ومنصور بن غدفل وصل، فصاح عليهم وسبهم ففترقوا.وقال أركب فركبنا ونزلنا في طريق أضيح من الطريق التي طلعت فيها وأوعر. فنزلنا إلى لوطا سالمين، وما كدنا نسلم.فجمعت للأمير منصور ألف دينار مصريه ودفعتها إليه وعاد.

في دمشق

وسرنا حتى وصلنا بلد دمشق بمن سلم من الإفرنج وبني فهيد يوم الجمعة خامس ربيع الآخر من السنة.وكانت السلامة من تلك الطريق من دلائل قدرة الله عز وجل وحسن دفاعه.

قصة السرج

ومن عجيب ما جرى لي في تلك الواقعة أن الظافر كان أرسل إلى ابن عباس وهو راجعاً صغيراً مليحاً إفرنجياً.وكنت قد خرجت إلى قرية لي، وابني أبو القوارس مرهف عند ابن عباس فقال لنا نريد لهذا الرهوار سرجاً مليحاً من السروج الغزية فقال له ابني قد وجدته يا مولاي وهو فوق الغرض قال أين هو قال في دار خادمك والذي له سرج غزي مليح قال انفذ أحضره فأرسل رسولاً إلى داري أخذ السرج فأعجبه وشد به على الرهوار وكان السرج طلع معي من الشام على بعض الجنائب وهو منبت مجرى بسواد في غاية الحسن

وزنه مائة مثقال وثلاثون مثقالاً. ووصلت أنا من الإقطاع فقال لي ناصر لدين أدلنا عليك أخذنا هذا السرج من دارك فقلت يا مولاي ماسعدني بخدمتك ! فلما خرج علينا الإفرنج بالمويلح كان معي من ممالئكي خمسة رجال على الجمال أخذت العرب خيلهم . فلما وقع الإفرنج بقيت الخيل سائبه، فنزل الغلمان عن الجمال واعترضوا الخيل وأخذوا منها ما ركبوه. فكان على بعض الخيل التي أخذوها ذلك السرج الذهب الذي أخذه ابن عباس. وكان حسام الملك ابن عم عباس وأخو عباس ابن العادل قد سلما فيمن سلم منا. وقد سمع حسام الملك خبر السرج وأنا أسمع كل ما كان لهذا المسكين يعني ابن عباس قد نهب فمناه ما نهب الإفرنج، ومنه ما نهبه أصحابه قلت لعلك تعني السرج الذهب قال نعم فأمرت بإحضاره وقلت اقرأ ما عليه اسم عباس عليه وابنه أو اسمي ومن كان في مصر يقدر يركب بسرج ذهب في أيام الحافظ غيري وكان اسمي مكتب على دائر السرج بالسواد ووسطه منبت. فلما قرأ ما عليه إعتذر وسكت .

عدم الاعتاظ بنكبة رضوان

ولولا نفاذ المشينة في عباس وابنه وعواقب البغي وكفر النعمة كان اتعظ بما جرى قبله للأفضل رضوان بن الوخشي رحمه الله، كان وزيرا فقام الجند عليه بأمر الحافظ كما قاموا على عباس، فخرج من مصر يريد الشام ونهبت داره وحرمه حتى أن رجلاً يعرف بالقائد مقبل رأى مع السودان جاريه فاشترها منهم وبعثها إلى داره، وكانت له امرأة صالحه فاطلعت الجارية إلى الحجرة في علو الدار فسمعتها تقول لعل الله يظفرنا بمن بغى علينا وكفر نعمتنا. فسألته من أنت فقالت قطر الندى بنت رضوان فنغذت المرأة إلى زوجها القائد مقبل أحضرته وهو على باب القصر في خدمته فعرفته حال البنت. فكتب إلى الحافظ مطالعه فعرف بذلك. فنغذ من خدام القصر من أخذها من دار مقبل ورفعها إلى القصر.

أسامه بمهمة سياسية تجاه رضوان

ثم أن رضوان وصل إلى صلخد وفيها أمين الدولة طغد كين أتاك رحمه الله فأكرمه وأنزله وخدمه. وملك الأمراء أتاك زكي بن اقسنقر رحمه الله على بعلبك يحاصرها. فراسل رضوان واستقر انه يمضي إليه وكان رجلاً كاملاً كريماً شجاعاً كاتباً عارفاً، وللجند إليه ميل عظيم لكرمه. فقال لي الأمير معين الدين رضي الله عنه هذا ان انضاف إلى أتاك دخل علينا منه ضرر كثير قلت فأني ترى شيء ترى قال تسير إليه لعلك ترد رأيه عن قصد أتاك ويكون وصوله إلى دمشق وأنت ترى فيما تفعله في هذا رأيك فسرت إليه إلى صلخد واجتمعت به وبأخيه الأوحى وتحدثت معهما. فقال لي الأفضل رضوان فرط الأمر مني ورهنت قولي عند هذا السلطان بوصولي إليه، ولزمني الوفاء بقولي. قلت أقدمك الله على خير وأنا أعود إلى صاحبي فإنه ما يستغني عني بعد أن اخرج إليك بما في نفسي قال قل قلت إذا وصلت إلى أتاك معه من العسكر ما ينفذ نصفه معك إلى مصر ويبقى نصفه يحاصرنا به قال لا قلت فإذا هو نزل على دمشق وحاصرها وأخذها بعد المدة الطويلة يقدر وقد ضعف عسكرة وفرغت نفقاتهم وطالت سفرتهم، يسير معك إلى مصر قبل أن يجدد بركه

ويقوي عسكرت قال لا قلت ذلك الوقت يقول لك نسير إلى حلب نجد آلة سفرنا فإذا وصلتم إلى حلب قال نمضي إلى الفرات نجتمع التركمان فإذا نزلتم على الفرات قال إن لم نعد الفرات ما يجمع لنا التركمان فإذا عديتم تشوف بك وافتخر على سلاطين الشرق وقال هذا عزيز مصر في خلعتي وتتمنى ذلك الوقت أن ترى حجرا من حجارة الشام فلا تقدر عليها وتذكر حينئذ كلامي وتقول نصحني ما قبلت فاطرق مفكرا لا يدري ما يقول ثم النفث إلي وقال ماذا أعمل؟ وأنت تريد ترجع. قلت أن كان في مقامي مصلحة أقت. قال نعم فاقمت. وتكرر الحديث بيني وبينه حتى استقر وصوله إلى دمشق.، وان يكون له ثلاثون ألف دينار نصفها نقد ونصفها إقطاع، ويكون له دار العقيقي، ويخرج لأصحابه ديوان. وكتب لي خطه بذلك وكان كاتباً حسناً. وقال أن شئت سرت معك. قلت لا أنا أسير ومعني الحمام من هاهنا. فإذا وصلت واخيلت الدار ورتبت الأمر، طيرت إليك الحمام وسرت أنا في الوقت ألقاك في نصف الطريق وادخل بين يديك فتقرر ذلك وودعته وسرت .

رضوان في حبس مصر

و كان أمين الدولة يشتهي مصيره إلى مصر لما قد وعد به واطعمه فيه، فجمع له من قدر عليه وسيره بعد مفارقتي له. فلما دخل حدود مصر غدر به الذين كانوا معه من الأتراك ونهبوا ثقله، والتجأ هو إلي حي من أحياء العرب وراسل الحافظ وطلب منه الأمان وعاد إلى مصر، فساعة وصوله إلى مصر أمر به الحافظ فحبس هو وولده. واتفق طلوعي إلى مصر وهو في الحبس في دار في جانب القصر فنقب بمسمار حديد أربعة عشر ذراعاً وخرج ليله الخميس وله من الأمراء نسيب قد عرف امره فهو عند القصر ينتظره ومصطنع له من لواته، ومشوا إلى النيل عدوا إلى الجزيرة واختبأت القاهرة لهروب. وأصبح في منظره في الجزيرة والناس يجتمعون إليه. وعسكر مصر قد تاهب لقتاله، ثم أصبح بكره الجمعة عدى إلى القاهرة والعسكر المصري مع قيماز صاحب الباب مدرعين للقاء، فلما وصلهم هزمهم ودخل القاهرة

رضوان يقتله الحرس الفاطمي

و كنت قد ركبت أنا واصحابي إلى باب القصر قبل دخوله البلد فوجدت أبواب القصر مغلقة وما عندها أحد، فرجعت نزلت في داري، ونزل رضوان في الجامع الأقمري واجتمع إليه الأمراء وحملوا إليه الطعام والنفقة. وقد جمع الحافظ قوما من السودان في القصر شربوا وسكروا، وفتح لهم باب القصر فخرجوا يريدون رضوانا. فلما وقع الصياح ركب الأمراء كلهم من عند رضوان وتفرقوا هو من الجامع، وجد حصانه قد أخذه الركابي وراح، فأراه رجل من صبيان الخاص واقفاً على باب الجامع فقالوا مولاي ما تركب حصاني؟ قال بلى فجاء إليه يركض وسيفه بيده، فأوماً كأنه يميل للنزول وضربه بالسيف فوقع، ووصله في السودان قتلوه، وتقاسم أهل مصر لحمه يأكلونه ليكونوا شجعاناً. فقد كان فيه معتبر وواعظ لولا نفاذ المشيئة.

بالفصاد ينجو جريح

وأصاب ذلك اليوم رجلاً من أصحابنا الشاميين جراح كثيرة، فجاءني أخوه وقال أخي تالف قد وقع فيه كذا وكذا جرح سيوف وغيرها، وهو مغمور ما يفيق. قلت ارجع افسده. قال قد خرج منه عشرون رطل دم. قلت ارجع افسده، فأنا اخبر منك بالجراح وليس له دواء غير الفصاد. فمضى غاب عني ساعتين ثم عاد وهو مستبشر، قال أنا فصدته وهو أفاق وأكل وشرب وذهب عنه البؤس. قلت الحمد لله ولولا أني جربت هذا في نفسي عدة مرار ما وصفته لك .

زيارة أسامة الثانية لدمشق

(١١٥٤ - ١١٦٤ م)

ثم اتصلت بخدمة الملك العادل نور الدين رحمه الله و كاتب الملك الصالح في تسير أهلي وأولادي الذين تخلفوا بمصر وكان محسناً إليهم. فرد الرسول اعتذر بأنه يخاف عليهم من الإفرنج، وكتب إلي يقول ترجع إلى مصر وأنت تعرف ما بيني وبينك، وإن كنت مستوحشاً من أهل القصر فتصل إلى مكة وأنفذ لك كتاباً بتسليم مدينته أسوان إليك، وأمدك بما تقوى به على محاربة الحبشة " فأسوان ثغر من ثغور المسلمين " واسير أهلك وأولادك. ففاوضت الملك العادل واستطلعت أمره فقاليا فلان، ما صدقت متى تخلص من مصر وفنتتها، تعود إليها! العمر أقصر من ذلك. أنا انفذ أحد لأهلك الأمان من ملك الإفرنج أسير من يحضرهم. فانفذ رحمه الله أخذ أمان الملك وصليبه في البر والبحر .

أسرة أسامة بيد الإفرنج

وسيرت الأمان مع غلام لي وكتاب الملك العادل وكتابي إلى الملك الصالح، فسيرهم في عشاري من الخاص إلى دمياط، وحمل لهم كل ما يحتاجونه من النفقات الزاد ووصى بهم، واقلعوا من دمياط في بطسه من بطس الإفرنج، فلما دنوا من عكار والملك، لا رحمه الله، فيها نفذ قوم في مركب صغير كسروا البطسه بالفؤوس واصحابي يرونهم، وركب ووقف على الساحل فهب كل ما فيه. فخرج إليه الغلام لي ساجداً والأمان معه وقال لهما مولاي الملك، ما هذا أمانك؟ قال بلى، ولكن هذا رسم المسلمينا إذا انكسر لهم مركب على بلد نهبه أهل ذلك البلد. قال فتسبيننا؟ قال لا، وانزلهم لعنه الله في دار وفتش النساء حتى أخذ كل ما معهم. وقد كان في المركب حلى اودعه النساء وكسوات وجوهر وسيوف وسلاح وذهب وفضه بنحو من ثلاثين ألف دينار، فأخذ الجميع ونفذ لهم خمس مائة دينار، وقائتوصلوا بهذه إلى بلادكم وكانوا رجلاً ونساء في خمسين نسمة. وكنت إذ ذلك مع الملك العادل في بلاد الملك مسعود رعبان وكيسون. فهون علي سلامة أولادي وأولاد أخي، وحرمتنا ذهب ما ذهب من المال إلا ما ذهب لي من الكتب، فإنها كانت أربعة آلاف مجلد من الكتب الفاخرة، فإن ذهابها حزاة في قلبي ما عاشت. فهذه نكبات ترزعع الجبال وتفني الأموال، والله

سبحانه يعوض برحمته ويختم بلطفه ومغفرته. وتلك وقعات كبار شاهدهما مضافة إلى نكبات نكبتها سلمت فيها النفس لتوقيت الآجال واجحفت بملاك المال.

معارك مع الإفرنج ومع المسلمين

وقد كان بين هذه الوقعات فترات شهدت فيها من الحروب مع الكفار والمسلمين ما لا احصيتها، وسأورد من عجائب ما شاهدهته ومارسته في الحروب ما يحضرنى ذكره، وما النسيان بمستنكر لمن طال عليه ممر الأعوام وهو وراثة بني آدم من أبيهم عليه الصلاة والسلام.

شرف الفارسجمعة

فمن ذلك ما شهدته من أنفة الفرسان وحملهم نفوسهم على الأخطار، أننا كنا الثقبنا نحن وشهاب الدين محمود بن قراجا، صاحب حماه ذلك الوقت وكانت الحرب بيننا وبينه ما تعب، والمواكب واقفه والطراد بين المتسرعة، فجاءني رجل من أجنادنا وفرساننا المعدودين يقال له جمعه من بني نمير وهو يبكي، فقلت لهمالك يا أبا محمود؟ هذا وقت بكاء؟ قال طعني سرهناك بن أبي منصور. قتلوا إذا طعنك سرهناك أي شيء يكون؟ قالما يكون شيء إلا يطعني سرهناك! والله إن الموت أسهل علي من أن يطعني لكنه استغفني واغتالني فجعلت أسكنه واهون الأمر عليه، فرد رأس فرسه راجعاً. قتلنا إلى أين يا أبا محمود؟ قال إلى سرهناك، والله لأطعنه أو لأموتن دونه. فغاب ساعة واشتغلت أنا بمن مقابلي، ثم عاد وهو يضحك فقلنا عملت؟ فقال طعنته والله، ولو لم اطعنه لفظت روحي، فحمل عليه في جمع أصحابه قطعنه وعاد، فكأن هذا الشعر عن سرهناك وجمعة بقوله لله درك ما تظن بنائراً... حوران ليس عن التراث براقد أيقظته ورقدت عنه ولم ينم... حنقاً عليك وكيف نوم الجاهد إن تمكن الأيام منك وعلها... يوماً يكلك بالصواع الزائد وقد يكون سرهناك هذا من الفرسان المذكورين مقدماً في الأكراد، إلا أنه كان شاباً وجمعة رجل كهل له ميزة بالسن والتقدمية في الشجاعة.

في صدر الإسلام

وذكرت بفعلة سرهناك ما فعله مالك بن الحارث الاشتهر رحمه الله بأبي مسيكة الايادي. وذلك انه لما ارتدت العرب في أيام أبي بكر رضوان الله عليه، وعزم الله سبحانه له على قتالهم، جهز العساكر إلى قبائل العرب المرتدين. فكان أبو مسيكة الايادي مع بني حنيفة وكانوا أشد العرب شوكة. وكان مالك الاشتهر في جيش أبي بكر رحمه الله. فلما توقهوا برز مالك بين الصفين وصاحيا أبا مسيكة فبرز له فقال ويحك يا أبا مسيكة، بعد الإسلام وقراءة القرآن رجعت إلى الكفر؟ فقال لا يا مالك! انهم يجرمون الخمر، ولا صبر عنها. قال هل

لك في المبارزة؟ قال نعم. فالتقيا بالرماح والتقيا بالسيوف فضربه أبو مسيكة فشق رأسه وشتر عينه وبتلك الضربة سمي الأشر. فرجع وهو معتنق رقبه فرسه إلى رحله، واجتمع له قوم من أهله وأصدقائه يكون. فقال لأحد همدانك بك في فمي. فادخل إصبعه في فمه فعضها مالك فالتوى الرجل من الوجع. فقال مالك لا بأس على صاحبكم. يقال إذا سلمت الأضراس سلم الرأس، أحشوها يعني الضربة سيافاً وشدوها بعمامة فلما حشوها وشدوها قاهاتوا فرسي. قالوا إلى أين قال إلى أبي مسيكة. فبرز بين الصفيين وصاح يا أبا مسيكة! فخرج إليه مثل السهم فضربه مالك بالسيوف على كتفه فشقها إلى سرجه فقتله. ورجع مالك إلى رحله فبقي أربعين يوماً لا يستطيع الحراك، ثم ابل وعوفي من جرحه ذلك.

سلامة المطعون

ومن ذلك ما شهدته من سلامة المطعون، وقد ظن أنه هلك، أننا التقينا بوادر خيل شهاب الدين محمود بن قراجا، قد جاء إلى أرضنا وكمنا لنا كميناً. فلم توقفنا نحن وهو انتشرت خيلنا. فجاءني فارس من جندنا يقال له علي بن سلام غميري وقال أصحابنا قد انتشروا ان حملوا عليه أهل كوههم. قلت احبس عني اخوتي وبني عمي حتى أردتهم. فقالوا أمراء، دعوا هذا يرد الناس ولا تتبعوه، وإلا حملوا عليهم قلعوهم. قالوا يمضي. فخرجت أنا قل حصاني حتى رددتهم، وكانوا ممسكين عنهم ليستجر وهم ويتمكنوا منهم. فلما رأوني قد رددتهم حملوا علينا وخرج كمينهم وأنا على فسحة من أصحابي فرجعت مباريهم أريد أحمي أعقاب أصحابي فوجدت ابن عمي ليث الدولة يجي رحمة الله قد حذب من وراء أصحابي من قبل الطريق وأنا في شمالية فجئناهم، فتسرع فارس من خيلهم يقال له فارس بن زمام رجل عربي فارس مشهور، وجازنا يريد الطعن في أصحابنا فسبقني إليه ابن عمي فطعنه فوقه هو وحصانه ووقع الرمح سمعتها أنا وأولئك. وكان الوالد رحمة الله أرسل رسولا إلى شهاب الدين فأخذه معه لما جاء لقتالنا فلما طعن فارس بن زمام ولم يبلغ منا ما أراد نفذ الرسول من مكانه بجواب ما سار فيه ورجع إلى حماه، فسألت الرسول هل مات فارس بن زمام، قال لا والله ولا فيه جرح قال ليث الدولة طعنه وأنا أراه فرماه ورمى حصانه وسمعت قعقة كسر الرمح، لما غشيه ليث الدولة من يساره مال على جانبه الأيمن وفي يده قنطاريتيه فوقه حصانه على قنطاريتيه وهي على وهذه فانكسرت، وتذنب ليث الدولة برمح فوقع من يده، والذي سمعت قعقة قنطاريه فارس بن زمام، ورمح ليث الدولة أحضره بين يدي شهاب الدين وأنا حاضر، وهو صحيح ما فيه كسر ولا في فارس جرح، فعجبت من سلامته وكانت تلك الطعنه طعنه فيصل كما قال عنتره

الخيل تعلم والفوارس أنني ... فرقت جمعهم بطعنة فيصل

ورجع جميعهم كمينهم ما نالوا منه ما أرادوه. والبيت المقدم من أبيات عنتره بن شداد يقول فيها

إني أمرؤ من خير عبس منصباً ... شطري وأحمي سائري بالمنصل

وإذا الكتيبة أحجمت فتلاحظت ... ألفت خيرا من معم مخول

وإن المنية لو تمثل مثلت ... مثلي إذا نزلوا بطنك المنزل

والخيل تعلم والقوارس أني ... فرقت جمعهم بطعنة فيصل
ودعوا نزال فكنت أول نازل ... وعلام أركبه إذا لم أنزل

أول قتال حضره أسامة

ومثل ذلك ما جرى لي على افامية فإن نجم الدين بن إيلغازي بن ارتق رحمه الله كسر الإفرنج على البلاط وذلك يوم الجمعة خامس جمادى الأولى سنة، ثلاث عشرة وخمسمائة وأفناهم وقتل صاحب إنطاكية روجار وجميع فرسانه، فسار إليه عمي عز الدين ابو العساكر سلطان رحمه الله، وتخلف والذي رحمه الله في حصن شيزر، وقد وصاه ان يسيروني إلى افامية بمن معي بشيزر من الناس والعرب لنهب زرع افامية، وكان قد هدف من العرب إلينا خلق كثير. فلما سار عمي نادى المنادي بعد يوميات من مسيره وسرت في نفر قليل ما عشرين فارساً، ونحن على يقين أن افاميه ما فيها خياله ومعني خلق عظيم من النهاية والبداية، فلما صرنا على وادي أبو الميمون، والنهاية والعرب متفرقون في الزرع، خرج علينا من الإفرنج جمع كثير، وكان قد وصلها تلك الليلة ستون فارساً وستون راجلاً فكشفونا عن الوادي، فاندفعنا بين أيديهم إلى أن وصلنا الناس الذين في الزرع ينتهبونه فضجوا ضجة عظيمة، فهان علي الموت لهلاك ذلك العالم معي، فرجعت على فارس في أولهم قد ألقى عنه درعه وتخفف ليجوزنا من بين أيدينا، فطعنته في صدره فطار عن سرجه ميتاً. ثم استقبلت خيلهم المتتابعة فولوا أنا غر من القتال ما حضرت قتالا قبل ذلك اليوم وتحتي فرس مثل الطير ألحق أعقابهم لأطعن فيهم ثم اجتن عنهم. وفي آخرهم فارس على حصان ادهم مثل الجمل بالدرع ولأمه الحرب وأنا خائف منه لا يكون جذاباً لي ليعود علي، حتى رأيته ضرب حصانه بمهمازه فلوح بذنبه فعلت انه قد اعيأ، فحملت عليه طعنته فنفذ الرمح من قدامه نحواً من ذراع، وخرجت من السرج لخرة جسمي وقوة الطعنة وسرعة الفرس، ثم تراجعت وجذبت رمحي وأنا أظن أني قتلته، فجمعت أصحابي وهم سالمون . وكان معي مملوك صغير يجر فرساً لي دهماء مجنوبة وتحتة بغلة مليحة سروجية وعليها مركوب صقيل فضة، فنزل عن البغلة وسيبها وركب الحجره فطارت به إلى شيزر، فلما عدت إلى أصحابي وقد مسكوا البغله سألت عن الغلام فقالوا راح. فعلمت انه يصل شيزر ويشغل قلب الوالد رحمه الله، فدعوت رجلاً من الجند وقتلتسرع إلى شيزر تعرف والذي بما جرى. وكان الغلام لما وصل أحضره الوالد بين يديه وقالأي شيء لقيتم؟ قاليا مولاي خرج الإفرنج في ألف، وما أظن أحد يسلم إلا مولاي قالكيف يسلم مولاك دون الناس؟ رأيته قد لبس وركب الخضراء هو يحدثه، وذلك الفارس قد وصله وأخبره باليقين ووصلت بعده فاستخبرني رحمه الله. فقلت يا مولاي كان أول قتال حضرته، فلما رأيت الإفرنج قد وصلوا إلى الناس هان علي الموت فرجعت إلى الإفرنج لأقتل أو أحمي ذلك العالم فقال رحمه الله متمثلاً
يفر جبان القوم عن أم رأسه ... ويحمي شجاع القوم من لا يلازمه
ووصل عمي رحمه الله من عند نجم الدين ايلغازي رحمه الله بعد أيام فأتاني رسوله يستدعيني في وقت ما جرت عادته فيه، فجننته فإذا عنده رجل من الإفرنج فقالهاذا الفارس قد جاء من افامية يريد يبصر الفارس الذي طعن فيليب الفارس، فإن الإفرنج تعجبوا من تلك الطعنة وإنما خرقت الزردية من طاقين وسلم

الفارس.قلتكيف سلم؟ قال ذلك الفارس الإفرنجي جاءت الطعنة في جلدة خاصرته. فقلت نعم الأجل حصن حصين. وما ظننته يسلم من تلك الطعنة. قلت يجب على من وصل إلى الطعنة أن يشد يده وذراعه على الرمح جانبه ويدع الفرس يعمل ما يعمل في الطعنة، فإنه متى حرك يده بالرمح مدها به لم يكن لطحنته تأثير ولا نكابة.

يسلم بعد أن قُطع شريان قلبه

وشاهدت فارساً من رجالنا يقال له ندى بن تليل القشيري وكان من شجعاننا، وقد التقينا نحن والإفرنج وهو معرى ما عليه غير ثوبين فطحنه فارس من الإفرنج في صدره فقطع هذه العصفورة التي في الصدر وخرج الرمح من جانبه، فرجع وما نظنه يصل منزله حياً، فقدر الله سبحانه ان سلم وبرأ جرحه، لكنه لبث سنة إذا نام على ظهره لا يقدر يجلس إن لم يجلسه إنسان بأكتافه، ثم زال عنه ما كان يشكوه وعاد إلى تصرفه وركوبه كما كان. قلت فسبحان من نفذت مشيئته في خلقه يحيي ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير.

واخر يموت من إبرة

كان عندنا رجل من المصطنعة يقال له عتاب، اجسم ما يكون من الرجل اطولهم دخل بيته فاعتمد على يده عند جلوسه على ثوب بين يديه كانت فيه إبرة دخلت في راحته فمات منها. وباللله لقد كان يشن في المدينة فيسمع أنينه من الحصن لعظم خلقه وجهارة صوته يموت من إبرة وهذا القشيري يدخل في صدره قنطاريه تخرج من جنبه لا يصيبه شيء.

حوادث الزمر كل

نزل علينا صاحب إنطاكية لعنه الله بفارسه وراجله وخيامه في بعض السنين فركبنا ولقيناهم نظن أنهم يقاتلونا، فجاءوا نزلوا منزلاً كانوا ينزلونه وهجموا في خيامهم، فرجعنا نحن إلى آخر النهار ثم ركبنا، ونحن نظن أنهم يقاتلونا فما ركبوا من خيامهم. وكان للابن عمي ليث الدولة يحيي غلة قد تجرت وهي بالقرب من الفرنج فجمع دواب يريد يمضي إلى الغلة يحملها، فسرنا معه في عشرين فارساً معدين وقفنا بينه وبين الفرنج إلى أن حمل الغلة ومضى، فعدلت أنا ورجل من مولدين يقال له حسام الدولة مسافر رحمه الله إلى كرم رأينا فيه شخوصاً وهم على شط النهر، فلما وصلنا الشخوص التي رأيناها والشمس على مغيبيها، فإذا شيخ عليه معرقة إمراة ومعه آخر. فقال له حسام الدولة وكان رحمه الله رجلاً جيداً كثير المزاح يا شيخ أي شيء تعمل ها هنا؟ قال أنتظر الظلام واسترزق الله تعالى من خيل هؤلاء الكفار. قال يا شيخ بأستانك تقطع عن خيلهم؟ قال لا بهذه السكين. وجذب سكين من وسطه مشدودة بحيث مثل شعلة النار، وهو بغير سراويل، فتركانه وانصرفنا. أصبحت من بكرة ركبت انتظر ما يكون من الإفرنج، وإذا الشيخ جالس في طريقي على حجر والدم على ساقه وقدمه وقد جمد. قلت يهتلك السلامة، أي شيء عملت؟ قال أخذت منهم حصاناً وترساً

ورمحا ولحقني راجل وأنا خارج من عسكريهم طعنني نفذ القنطارية في فخذي وسبقت بالحصان والترس والرمح، وهو مستقل بالطعنة التي فيه كأنها في سواه. وهذا الرجل يقال له الزمركل من شياطين اللصوص. حدثني عنه الأمير معين الدين رحمه الله قال أغرت زمان مقامي بحمص على شيزر وعدت آخر النهار نزلت على ضيعة من بلدة حماه، وأنا عدو لصاحب حماه، قال فجاءني قوم معهم شيخ قد أنكروه فقبضوه وجاؤوني به فقلت يا شيخ أيش أنت قاليا مولاي أنا رجل صعلوك شيخ زمن وأخرج يده من زمنه قد اخذ لي العسكر عنزتين جئت خلفهم لعل إن يتصدقوا علي بهما. قتلتم لقوم من الجندارية احفظوه إلى غد فأجلسوه بينهم وجلسوا على اكمام فروة عليه فاستغفلهم في الليل وخرج من الفروة وتركها تحتهم وطار فعدوا في أثره، سبقهم ومضى، قال وكنت قد نفذت بعض أصحابي في شغل فلما عادوا وفيهم جنود يقال له سومان قد كان يسكن بشيزر فحدثته حديث الشيخ قال واحسرتي عليه لو كنت لحقته كنت شربت دمه هذا الزمركل. قلنفاي شيء بينك وبينه قال نزل عسكر الفرنج على شيزر فخرجت أدور به لعل أسرق حصاناً منهم، فلما أظلم الظلام مشيت إلى طوالة خيل بين يدي، وإذا هذا جالس بين يدي. فقال ليالي أين قلناخذ حصاناً من هذه الطوالة. قال وأنا من العشاء انظرها حتى تأخذ أنت الحصان! قلت لا تمذ. قال لا تغتر. والله ما أدعك تأخذ شيئاً. فما الفت إلى قوله ويمت إلى الطوالة. فقام وصاح بأعلى صوتهوا فقري واخبية تعي وسهري. وصيح حتى خرج على الفرنج، فأما هو فطار، فطردوني حتى رميت نفسي في النهر، وما ظننت أنني أسلم منهم، ولو لحقتهم كنت شربت دمه، وهو لص عظيم، وما تبع العسكر إلا يسرق منه. فكان هذا الرجل يقول من يراها في هذا يسرق رغيف خبز من بيته.

سرقة الخيل

ومن عجيب ما اتفق في السرقة ان رجلا كان في خدمتي يقال له علي ابن الدودويه من اهل مشكير ونزل يوما الإفرنج لعنهم الله على كفر طاب، وهي ذا ذاك لصالح الدين محمد بن أيوب الغسياني رحمه الله. فخرج هذا علي بن الدودوية، دار بهم وأخذ حصاناً ركه وخرج من العسكر يركض، وهو يسمع الحس خلفه ويعتقد ان بعضهم ركب في طلبه، وهو مجد في الركض والحس خلفه حتى ركض قدر فرسخين والحس معه. فالتفت يبصر ما خلفه في الظلام، وإذا بغلة كانت تألف الحصان قد قطعت مقودها وتبعته، فوقف حتى شد فوطته في رأسها وأخذها وأصبح عندي في حماه بالحصان والبعلة. وكان الحصان من أجود الخيل وأحسنها وأسبقها .

أتابك يستولي على حصان أسامة

كنت يوماً عند أتابك وهو يحاصر رنية وقد استدعاني وقال لي يا فلان أي شيء في حصانك الذي خبيته؟ وكان قد بلغه خبر الحصان. قلت لا والله يا مولاي مالي حصان مخبي، حصني كلها في العسكر. قال فالحصان لإفرنجي؟ قلت حاضر قال نفذ أحضره أنفذت أحضرته وقلت للغلام امضي به إلى

الإصطبل. فقال أتابكاتر كه الساعة عندك. ثم أصبح سيق، فسبق، وردته إلى اصطبلي، وعاد استدعاه من البلد وسبق به فسبق فحملته إلى اصطبله.

سهم في حلق

وشاهدت في الحرب عند انتهاء المدة كان عندنا رجل من الجند يقال له رافع الكلابي، وهو فارس مشهور. اقتتلنا نحن وبنو قراجا وقد جمعوا لنا من التركمان وغيرهم وحشدوا وباسطناهم على فسحة من البلد، ثم تكاثروا علينا فرجعنا وبعضنا يحمي بعضنا. وهذا رافع فيمن يحمي الأعقاب، وهو لايس كزاغند وعلى رأسه خوذة بلا لنام. فالنتف لعله يرى فيهم فرصه فينحرف عليهم فضربه سهم كشمًا في حلقه ذبحه ووقع مكانه ميتاً.

؟؟؟؟

طعنه في فرس

وكذلك شاهدت شهاب الدين بن قراجا، وقد انصلح ما بيننا وبينه، وقد نفذ إلى عمي يقول له تأمر أسامه يلقباني هو وفارس واحد إلى كرعة لنمضي نصر موضعنا نكمن فيه لأفامية ونقاتلها. فأمرني عمي بذلك فركبت ولقيته وأبصرنا الموضع. ثم اجتمع عسكرينا وعسكرة، وأنا على عسكري شيزر وهو في عسكرة، وسرنا إلى افاميه ولقينا فارسهم وراجلهم في الخراب الذي لها وهو مكان لا يتصرف فيه الخيل من الحجارة والأعمدة وأصول الحيطان الخراب، فعجزنا عن قلعهم من ذلك المكان. فقال لي رجل من جندنا تريد تكسرهم؟ قلنتعم قالا قصد بنا باب الحصن. قلتسيروا. وندم القائل وعلم أنهم يلسونا ويجوزون إلى حصنهم، فأراد أن يرديني عن ذلك، فأبيت وقصدت الباب. فساعة ما رأنا الإفرنج قاصدين الباب عاد إلينا فارسهم وراجلهم فداسوننا وجازوا. ترجل الفرسان داخل باب الحصن واطلعوا خيلهم إلى الحصن وصفوا عوالي قنطاريتهم في الباب، وأنا وصاحب لي من مولدي أبي رحمه الله، اسمه رافع بن سوتكين وقف تحت السور مقابل الباب وعلينا شيء كثير من الحجارة والنشاب، وشهاب الدين واقوف في موكب بعيد منهم على خوف الأكراد. فقد طعن صاحب لنا يقال له حارثة النمري نسيب جمعة في صدر فرسه طعنه معترضة. ونزلت القنطارية في الفرس فتنجطت حتى وقعت القنطارية منها ووقعت جلده صدرها جميعها فبقيت مسبلة على اعضادها.

في زنده

وشهاب الدين بمعزل عن القتال، فجاء سهم من الحصن فضربه في الجانب عظم زنده فما دخل في جانب عظم زنده مقدار طول شعيرة، فجاءني رسوله يقول لا تزل مكانك حتى تجمع الناس الذين تفرقوا في البلد، فأنا قد جرححت أحس الجرح في قلبي وأنا راجع فاحفظ أنت الناس. ومضى رجعت أنا بالناس نزلت على

برج خريبه. وكان الإفرنج عليه ديبان يكشفان إذا أردنا الغارة على أفامية. ووصلت العصر إلى شيزر وشهاب الدين في دار والدي يريد يحل جرحه ويداويه، وعمي قد منعه وقال والله ما تحل جرحك إلا في دارك. قالنا في دار والدي - يعني الوالد رحمه الله. قال إذا وصلت دارك وبرأ جرحك دار والدك بحكمك. فركب المغرب وسار حماه فأقام الغد وبعد غد ثم اسودت يده وغاب عنه رشده ومات، وما كان به الإفراغ الأجل.

طعنة تقطع عدة أضلاع

وشاهدت من الطعنات العظيمة طعنه طعنها فارس من الإفرنج، خذهم الله فارس من أجنادنا يقال له سابه بن قتيب كلاي قطع له ثلاثة أضلاع من جانبه اليسار وثلاثة أضلاع من جانبه الأيمن وضرب شفار الحربة مرفقه ففصله كما يفصل الجزار المفصل ومات لساعته.

وأخرى تقطع الزرد

وطعن رجل من أجنادنا كردي يقال له مياح فارساً من الإفرنج ادخل قطعه من الزرد في جوفه وقتله. ثم ان الإفرنج غاروا علينا بعد أيام، ومياح قد تزوج وخرج وهو لابس وفوق درعه ثوب احمر من ثياب العروس قد تشهر به فطعنه فارس من الإفرنج فقتله رحمه الله. يا قرب مأمته من العرس فذكرت به الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم وقد انشد قول قيس بن الخطيم أجا لدهم يوم الحفيظة حاسراً ... كان يدي بالسيف مخزاق لآعب

فقال النبي صلى الله عليه وسلم للحاضرين من الأنصار رضي الله عنهم " هل حضر أحد منكم يوم الحديقة "؟ فقال رجل منهم أنا حضرته يا رسول الله عليك وسلم وحضره قيس بن الخطيم وهو قريب عهد بالعرس وعليه ملاءة حمراء فوالذي بعثك بالحق لقد عمل في قتاله كما قال عن نفسه

وثالثة تنفذ في صدر الإفرنجي

ومن عجائب الطعن ان رجلا من الأكراد يقال له حمدات كان قديم الصحبة قد سافر مع والدي رحمه الله إلى اصبهان إلى دركاه السلطان ملكشاه فكبر وضعف بصره ونشأ له اولاد. فقال له عمي عز الدين رحمه الله يا حمدات كبرت وضعفت، ولك علينا حق وخدمه، فلو لزمت مسجدك وكان له مسجد على باب داره واثبتنا اولادك في الديوان ويكون لك أنت كل شهر ديناران وحمل دقيق وأنت في مسجدك. قال افعل يا أمير. فأجري له ذلك مديدة. ثم جاء إلى عمي وقال يا أمير والله لا تطاوعني نفسي على القعود في البيت وقتلي على فرسي أشهى إلي من الموت على فرشي. قال الأمر لك وأمر برد ديوانه عليه كما كان. فما مضى إلا الأيام القلائل حتى غار علينا السرداني صاحب طرابلس. ففزع الناس إليهم وحمدات في جملة الروع،

فوقف على رفعة من الأرض مستقبل القبلة فحمل عليه فارس من الإفرنج من غريبه فصاح إليه بعض اصحبنا يا حمدات فلتفت، فرأى الفارس قاصده فرد رأس فرسه شمالاً ومسك رمحه بيده وسدده إلى صدر الإفرنجي فطعنه فنفذ الرمح منه، فرجع الإفرنجي متعلقاً برقبة حصانه في آخر رمقه. فلما انقضى القتال قال حمدات لعمي يا أمير لو أن حمدات كان في المسجد من طعن هذه الطعنه؟ فاذا كرتي قول الفند الزماني أيا طعنه ما شيخ ... كبير يفنى بالي تفتيت بها إذ ... كره الشبكة أمثالي وكان الفند قد كبر وحضر القتال فطعن فارسين مقتربين فرماهما جميعاً

طعنة تودي بفارسين وفرنسين

وقد كان جرى لنا مثل ذلكوهو ان فلاحاً من العلاة جاء يركض إلى أبي وعمي رحمهما الله، قال شاهدت سرية إفرنج تائهن قد جاءوا من البرية لو خرجتم إليهم أخذتموهم فركب ابي وعماي خرجوا بالعسكر إلى السرية الثائه وإذا به السرداني صاحب طرابلس في ثلاثمائة فارس ومائتين تركيولي وهم رماة الإفرنج. فلما رأوا اصحبنا ركبوا خيلهم أطلقوا على أصحابنا هزموهم وتموا يطردونهم، فاحرف عليهم مملوك لوالدي يقال له ياقوت الطويل وأبي وعمي رحمهما الله يريانه، فطعن فارسا منهم إلى جانبه فارس آخر وهما يتبعان أصحابنا فرمى الفارسين والفرنسين. وكان هذا الغلام كثير التخليط والزلات لا يزال قد فعل فعلة يجب تأديبه عليها. فكلما هم والدي به وتأديبه يقول عمييا أخي بحياتك هب لي ذنبه ولا تنس له تلك الطعنه فيصيح عنه لكلام أخيه. وكان حمدات الذي تقدم ذكره طريف الحديث، حدثني والدي رحمه الله قالقلت لحمدات ونحن سائرون في طريق أصبهان سحراً، أمير حمدات أكلت اليوم شيئاً؟ قال نعم يا أمير أكلت ثريدة قال ركبنا في الليل وما نزلنا ولا أوقدنا ناراً، من أين لك الثريدة قال يا أمير عملتها في فمي اخلط في فمي الخبز واشرب عليه الماء يصير كالثريدة .

والد أسامة مقاتلاً

وكان الوالد رحمه الله كثير المباشرة للحرب وفي بدنه جراح هائلة ومات على فراشه، وحضر يوماً القتال وهو لابس وعليه خوذه إسلامية بأنف فزرقه رجل بحربه - وكان معظم قتاله مع العرب في ذلك الزمان فوقعت الحربة في أنف الخوذة فأنطوى وادمى انفه ولم يؤذيه. ولو كان قدر سبحانه ان يميل المزراق عن أنف الخوذه أهلكه، وضرب مرة أخرى بنشابة في ساقه وفي خفه دشني فوقع السهم في اللشن فانكسر فيه ولم يجرحه، هذا الحسن دفاع الله الله تعالى .

وشهد رحمه الله يوم الأحد تاسع وعشرين شوال سنة سبع وتسعين وأربعمائة مع سيف الدولة خلف بن ملاعب الأشهبي صاحب أفامية بأرض كفر طاب فلبس جوشنه، وعجل الغلام عن طرح كلاب الجوشن من

الجانب فجائه خشت فضربه في ذلك الموضع الذي أخل الغلام بستره فوق بزه الأيسر خرج الخشت من فوق بزه الأيمن، فكانت أسباب السلامة لما جرت بها المشيئة من العجب، والجرح لما قدره الله سبحانه من العجب. فطعن رحمه الله في ذلك اليوم فارساً أحرف حصانه وثني يده برمح وجذبه من المطعون. فحدثني قال حسست شيئاً قد لدع زندي، فظننته من حرارة صفائح الجوشن، إلا أن رمحي سقط من يدي، فردتها فإذا قد طعنت في يدي وقد استرخت لقطع شيء من الأعصاب، فحضرتة يرحمه الله وزيد الجرائحي يداوي جرحه وعلى رأسه غلام واقف، فقاليا زيد اخرج هذه الحصاة من الجرح، فما كلمه الجرائحي فعاد فقال يا زيد ما تبصر هذه الحصاة؟ ما تزيلها من الجراح! فلما أضجره قالأين الحصاة؟ هذا رأس عصب قد انقطع. وكان بالحقيقة ايضاً كأنه حصاة من حصا الفرات. وأصابه ذلك اليوم طعنه أخرى وسلم الله حتى مات على فراشه رحمه الله يوم الاثنين ثامن شهر رمضان سنة إحدى وثلاثين وخمس مائة .

والد أسامة ناسخا

وكان يكتب خطأً مليحاً، فما غيرت تلك الطعنة من خطه، وكان لا ينسخ سوى القرآن، فسألته يوماً قهلتيا مولاي كم كتبت ختمه؟ قالالساعة تعلمون. فلما حضرته الوفاة قال في ذلك الصندوق مساطر كتبت على كل مسطرة ختمه ضعوها يعني المساطر تحت خدي في القبر فعددناها فكانت ثلاثاً وأربعين مسطرة. فكانت كتب بعدتها ختمتأختمه كبيره ختمها بالذهب وكتب فيها علوم القرآن قرأته وغريبة وعريته وناسخه ومنسوخة وتفسيره وسبب نزوله وفقهه بالخبر والحكمة والزرقة، وترجمه بالتفسير الكبير وكتب ختمه أخرى بالذهب مجردة من التفسير، وباقي الخاتمات بالخبر مذهبة الأعشار والأهلس والآيات ورؤوس السور ورؤوس الأجزاء. وما يقتضي الكتاب ذكر هذا وإنما ذكرته لا يستدعي له ممن وقف عليه.

غلام يفدي مولاه

أعود إلى ما تقدم. وفي ذلك اليوم أصاب غلام كان لعمي عز الدولة أبي المرهف نصر رحمه الله يقال له موفق الدولة شمعون طعنه عظيمة النقاها دون عمي عز الدين أبي العساكر سلطان رحمه الله. واتفق ان عمي أرسله رسولاً إلى الملك رضوان بن تاج الدولة تنش إلى حلب، فلما حضر بين يديه قال لغلماهمثل هذا يكون الغلمان وأولاد الحلال في حق مواليهم. وقال لشمعون حدثهم حديثك أيام والدي وما فعلته مع مولاي. فقاليا مولانا بالأمس حضرت القتال مع مولاي فحمل عليه فارس يطعنه، فدخلت بينه وبين مولاي لأفديه بنفسي فطعني، قطع من أضلاعي ضلعين وهما - ونعمتك - عندي قمطره. فقال له الملك رضوانوالله ما أعطيك الجواب حتى تنفذ تحضر القمطرة والأضلاع. فأقام عنده وأرسل من أحضر القمطرة وفيها عظامان من أضلاعه. فعجب رضوان من ذلك وقال لأصحابكمذا عملوا في خدمتي. فأما الأمر الذي سأله عنه أيام والده تاج الدولة فإن جدي سديد الملك أبا الحسن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ رحمه الله سير ولده عز

الدولة نصرًا رحمه الله إلى خدمته تاج الدولة وهو معسكر بظاهر حلب فقبض عليه واعتقله ووكّل به من يحفظه، وكان لا يدخل إليه سوى مملوكه هذا شمعون والموكلون حول الخيمة فكتب عمي إلى أبيه رحمه الله يقول تنفذ لي في الليلة الفلانية وعينها قوم من أصحابه ذكرهم وخيل أركبها إلى الموضع الفلاني. فلما كانت تلك الليلة دخل شمعون خلعت ثيابه فلبسها مولاه وخرج على الموكلين في الليل، فما أنكره، ومضى إلى أصحابه وركب وسار، ونام شمعون في فراشه. وجرت العادة أن يجيئه شمعون في السحر بوضوئه فكان رحمه الله من الزهاد القائمين ليلاً يتلون كتاب الله تعالى، فلا أصبحوا لم يروا شمعون دخل كعادته دخلوا الخيمة فوجدوا شمعون وعز الدولة قد راح، فأنهوا ذلك إلى تاج الدولة فأمر بإحضاره، فلما حضر بين يديه قال كيف عملت؟ قال أعطيت مولاي ثيابي لبسها وراح ونمت أنا في فراشه قالوما خشيت أن أضرب رقبتك؟ قال يا مولاي إذا ضربت رقبتك وسلم مولاي وعاد إلى بيته فأنا السعيد بذلك، ما اشتري وربي إلا لأفديه بنفسي. فقال تاج الدولة رحمه الله لحاجبه سلم إلى هذا الغلام خيل مولاة ودابته وخيامه وجميع ركبه وسير يتبع صاحبه وما أنكر عليه وما احنقه ما فعل في خدمت مولاه، فهذا الذي قال له رضوان حدث أصحابي ما عملته أيام والدي مع مولاك. أعود إلى حديث الحرب المقدم ذكرها مع ابن ملاعب .

عم أسامه يطعن في جفن عينه

و جرح عمي عز الدولة رحمه الله في ذلك اليوم عده جراح منها طعنه طعنها في جفن عينيه السفلاي من ناحية المآق، ونشب الرمح في المآزق عند مؤخر العين فسقط الجفن جميعه وبقي معلقا بجلده من مؤخر العين، والعين تلعب لا تستقر، وأنا الجفون التي تمسك العين، فخاطبها الجرائحي وداواها فعادت كحالتها الأولى لا تعرف العين المطعونة من الأخرى .

شجاعة عم أسامه ووالده

وكانا رحمهما الله من أشجع قومهما، ولقد شهدتهما يوما وقد خرجا إلى الصيد بالبراة نحو تل ملح وهناك طير ماء كثير، فما شعرنا إلا وعسكر طرابلس قد أغار على البلد ووقفوا عليه، فرجعنا وكان الوالد من أثر المرض، فأما عمي فخفف بمن معه من العسكر وسار حتى عبر المخاض إلى الإفرنج وهم يرونه، وأما الوالد فسار والحصان يجنب به وأنا معه صبي وفي يده سفرجله يمتص منها، فلما دنونا من الإفرنج قال لي أمض أنت أدخل من السكر وعبر هو من ناحية الإفرنج . ومره أخرى شاهدته وقد أغارت علينا خيل محمود بن قراجا، ونحن على فسحة من البلد، وخيل محمود أقرب إليه منها، وأنا قد حضرت القتال ومارست الحرب، فلبست كتر اغندي وركبت حصاني وأخذت رمحي، وهو رحمه الله على بغله. فقلت يا مولاي ما تركب حصانك! قال بلى وسار كما هو غير منزعج ولا مستعجل، وأنا لخوفي عليه ألح عليه في ركوبه حصانه إلى أن وصلنا إلى البلدة وهو على بغلته، فلما عاد أولئك وأنا قلت يا مولاي ترى العدو قد حال بيننا وبين البلد وأنت لا تركب بعض جنائبك وأنا أخاطبك فلا تسمع! قال يا ولدي، في طالعي أنني لا ارتاع. وكان

رحمه الله له اليد الطولى في النجوم مع ورعه ودينه وصومه الدهر وتلاوة القرآن، وكان يحرضني على معرفة علم النجوم فأبى وأمتنع، فيقول فاعرف أسماء النجوم ما يطلع منها ويغرب . وكان يريني النجوم ويعرفني أسماءها .

مكيدة أفرنجيه على شيرز

ورأيت من أقدام الرجال ونخواتهم في الحرب أنا أصبحنا وقت صلاه الصبح رأينا سربه من الإفرنج نحوا من عشرة فوارس جاءوا إلى باب المدينة قبل أن يفتح فقالوا للبواب أي شيء اسم هذا البلد؟ والباب خشب بينهما عوارض وهو داخل الباب . قال شيرز فرموه بنشاب من خلل الباب ورجعوا وخيلهم تخب بهم . فركبنا فكان عمي رحمه الله أول راكب وأنا معه والإفرنج رائجون غير منزعجين يلحقنا من الجند نفر، فقلت لعمي على أمرك آخذ أصحابنا واتبعهم اقلعهم وهم غير بعيدين . قال لا وكان أخير مني بالحرب في الشام إفرنجي لا يعرف شيرز؟ هذه مكيدة . ودعا فارسين من الجند على فارسين سوابق وقال أمضيا اكشفا تل ملح وكان مكمننا للإفرنج . فلما شارفاه خرج عليها عسكر انطاكية جميعه فأستقينا متسرعيهم نريد الفرصه فيهم قبل ركود الحرب ومعنا جمعه النميري وابنه محمود وجمعه فارسنا وشيخنا، فوقع ابنه محمود في وسطهم فصاح جمعه يا فرسان الخيل ! ولدي ! فرجعنا معه في سته عشر فارسا طعنا سته عشر فارسا من الفرنج وأخذنا صاحبنا من بينهم اختلطنا نحن وهم حتى أخذ واحد رأس ابن جمعه تحت إبطه فخلص ببعض تلك الطعنات .

أسامة وجمعة يهزمان ثمانية فرسان

ومع هذا فلا يثق إنسان بشجاعته ولا يعجب بأقدامه، فوالله لقد سرت مع عمي رحمه الله أغرنا على أفامية، وأتفق أن رجالها خرجوا ليسيروا قافلة فسيروها وعادوا، ونحن لقيناهم فقتلنا منهم قدر عشرين رجلاً، ورأيت جمعة النميري رحمه الله وفيه نصف قطارية قد طعن بها في لبد السرج وخرج الرمح من البداد إلى فخذه ونفذ إلى خلفه فانكسرت القنطارية فيه فراعي ذلك . فقال لا بأس، أنا سالم . ومسك سنان القنطارية وجذبها منه وهو وفرسه سالماً . فقلنا أبا محمود اشتهي أتقرب من الحصن أبصره . قال سر . فرحت أنا وهو نخب فرسينا، فلما أشرفنا على الحصن إذا من الإفرنج ثمانية من الفرسان وقوف على الطريق وهي مشرفة على الميدان من ارتفاع لا ينزل منه إلا من تلك الطريق . فقال لي جمعة قف حتى أريك ما أصنع فيهم . قلت ما هذا أنصاف، بل نحمل عليهم أنا وأنت . قال سر، فحملنا عليهم فهزمناهم ورجعنا نحن نرى إنا قد فعلنا شيئاً ما يقدر يفعله غيرنا، نحن اثنان قد هزمتنا ثمانية فرسان من الإفرنج .

ثم يهزمها رويجل

فوقفنا على ذلك الشرف ننظر الحصن، فما راعنا إلا رويجل قد طلع علينا من ذلك السند الصعب معه قوس ونشاب فرمانا، ولا سبيل لنا إليه فهزمتنا، والله ما صدقنا نتخلص منه وخيلنا سالمة، ورجعنا، دخلنا مرج أفامية فسقنا منه غنيمة كبيرة من الجواميس والبقر والغنم، وانصرفنا وفي قلبي من ذلك الرجل الذي هزمتنا حسرة الذي ما كنا لنا إليه سبيل، وكيف هزمتنا راجل ولحد وقد هزمتنا ثمانية فرسان من الإفرنج.

المدواة بالعلل

وشهدت يوماً وقد أغارت علينا خيل كفر طالب في قلة ففزعتنا إليهم طامعين فيهم لقلبتهم، وقد كمنوا لنا كميناً في جماعة منهم، وأهزم الذين أغاروا فتبعناهم حتى أبعدنا عن البلد، فخرج إلينا الكمين ورجع إلينا الذين كنا نطردهم، فأرأينا اننا ان أهزمتنا قلعونا كلنا فالتقيناهم مستقلين فنصرنا الله عليهم، فقلعنا منهم ثمانية عشر فارساً منهم من طعن فمات ومنهم من طعن فوق وهو سالم ومنهم من طعن حصانه فهو راجل. فجذب الذين في الأرض منهم سالمون، ووقهوا، كل من اجتاز بهم ضربوه. فأجتاز جمعه النميري رحمه الله بواحد منهم فخطأ إليه وضربه على رأسه، وعلى رأسه قلنسوة فقطعها وشق جبهته وجرى منها الدم حتى نرح وبقيت مثل فم السمكة مفتوحة، فلقيته ونحن في ما نحن فيه من الإفرنج قتلته له يا أبا محمود ما تعصب جراحك! فقال ما هذا وقت العصاب وشد الجراح. وكان لا يزال على وجهه خرقه سوداء وهو رمد وفي عينيه عروق حمراء. فلما أصابه ذلك الجرح وخرج منه الدم الكثير زال ما كان يشكوه من عينيه ولم يعد يناله منهما رمد ولا ألم فرجما صحت الأجسام بالعلل.

استخلاص ابن عم أسامه من أيدي الإفرنج

وأما الإفرنج فإنهم اجتمعوا بعدما قتلنا منهم من قتلنا ووقهوا مقابلنا. فجاعني ابن عمي ذخيرة الدولة أبو القنا خطام رحمه الله فقالوا ابن عمي معك جنيتان وأن على هذا الفرس الحطم. قلت للغلام مقدم له الحصان الأحمر فقدمه له، فساعة ما أستوى في سرجه حمل على الإفرنج وحده فافرجوا له حتى توسطهم وطعنوه، رموه وطعنوا الحصان واقبلوا قطارياًتهم وصاروا يركشونه بها، وعليه زردية حصينه ما تعمل رماحهم فيها، وعليه زردية حصينه ما تعمل رماحهم فيها، فتصايحنا صاحبكم! صاحبكم! وحمنا عليهم فهزمتناهم عنه واستخلصناه وهو سالم، وأما الحصان فمات في يومه، فسبحان المسلم القادر. وتلك الواقعة إنما كانت لسعادة جمعه وشفاء عينيه، فسبحان القائل وعسى ان تكرهوا شيئاً وهو خير لكم.

ضربه سكين تشفي من الاستسقاء وقد جرى لي مثل ذلك كنت بالجزيرة في عسكر أتابك فدعاني صديق إلى داره ومعى ركابي اسمه غنيم قد أستسقى ودقت رقبته وكبر جوفه وقد تغرب معى فأنا أرعى له ذلك، فدخل بالبغلة إلى اصطبل ذلك الصديق هو غلمان الحاضرين، وعندنا شاب تركي سكر وغلب عليه السكر، فخرج إلى الاصطبل، جذب سكينه وهجم على الغلمان فانهزموا وخرجوا. وغنيم لضغفه ومرضه، قد طرح السرج تحت رأسه ونام، فما قام حتى خرج كل من في الاصطبل فضربه ذلك السكران بالسكين

تحت سرته فشق من جوفه قدر أربع أصابع فوق موضع فحملة الذي دعانا وهو صاحب قلعه باثرا إلي داري وحمل الذي جرحه وهو مكتوف معه إلى داري فأطلقته، وتردد إليه الجرائحي فصلح ومشى وتصرف، إلا أن الجرح ما ختم، وما يزال يخرج منه مثل القشور وماء أصفر مدة شهرين ثم ختم وضم جوفه وعاد إلى الصحة، فكان ذلك الجرح سببا لعافيته .

شوكه تشفي عين باز

ورأيت يوما الباز دار قد وقف بين يدي والدي رحمه الله وقال يا مولاي هذا الباز قد لحقه حص وهو يموت وعينه الواحدة قد تلفت فتصيد به فهو باز شاطر وهو تالف . فخرجنا إلى الصيد وكان معه رحمة الله عدة بزاه، فرمى ذلك الباز على درجه وكان يهجم في النبح، فنبجت الدراجة في أجمة غلفاء، ودخل الباز معها وقد صار على عينه كالقطه الكبيرة، فضربته شوكة من الغلفاء في تلك النقطة ففقاها . فجاء به البازدار وعينه قد سالت وهي مطبوقه فقال يا مولاي تلفت عين الباز . فقال كله تألف . ثم من الغد فتح عينه وهي سالمة، وسلم ذلك الباز عندنا حتى قرنص قرناصين فكان من أشطر البزاة ذكرته بما جرى لجمعه وغنيم وان لم يكن موضع ذكر البزاة ورأيت من استسقى وفصدوا جوفه فمات، وغنيم شق ذلك السكران جوفه سلم وعوفي فسبحان القادر .

الهزيمة أمام إفرنج إنطاكية

أغار علينا عسكر إنطاكية واصحبنا قد التقوا أوائلهم وجاءوا قدامهم وأنا واقف في طريقهم انتظر وصولهم إلي لعلي أنال منهم فرصة واصحابنا يعبرون علي منهزمين، فعبر علي ممن عبر محمود بن جمعة . فقلقتف يا محمود فوقف لحظة ثم دفع فرسه ومضى عني ووصلني أوائل خيلهم، فاندفعت بين أيديهم وأنا راد رمحي إليهم ملغفت انظرهم لا يتسرع إلى منهم فارس يطعني وبين يدي جماعة من أصحابنا ونحن بين بساتين لها حيطان طوال قعدة الرجل فندس فرسي بصلرها رجل من أصحابنا، فردت راس فرسي على يساري فضربتها بالمهايمز ففرت الحائط، فضبطت حتى صرت أنا والإفرنج مصطفين وبيننا الحائط، فتسرع منهم فارس عليه تشهير حرير اخضر واصفر، فظننت ان تحته درع فتركته حتى تجاوزني وضربت الفرس بمهمازي ففرت الحائط وطعنته، فمال إلى ان وصل رأسه ركابه ووقع ترسه والرمح من يديه والخوذة عن رأسه، ونحن قد وصلنا إلى رجالتنا، ثم عاد انصب في سرجه وكان عليه زرديه تحت التشهير فما جرحته الطعنه وادركه أصحابه ثم عادوا، وأخذ الرجالة الترس والرمح والخوذة .

جمعة نفسه يهرب

فلما انقضى القتال ورجع الإفرنج جاعني جمعة رحمه الله يعتذر عن ابنه محمود وقال هذا الكلب انهزم عنك . قلت أي شيء يكون؟ قال ينهزم عنك ولا يكون شيء؟ قلت وحياتك يا أبا محمود وأنت تنهزم عني

أيضا. قال يا شين! والله إن موتي أسهل علي من أن انهزم عنك ولم يمضي إلا أيام قلانل حتى أغارت علينا خيل حماه فآخذوا لنا باقورة وحسوها في الجزيرة تحت الطاحون الجلاي. وطلع الرماة على الطاحون يحمون الباقورة، فوصلتهم أنا وجمعة وشجاع الدولة ماضي مولد لنا وكان رجلاً شجاعاً. فقلت لهما نعب الماء ونأخذ الدواب. فعبنا. أما ماضي فضربت فرسه نشابة فقتلتها وبالجهد وأوصلته إلى اصحاب، وأما أنا ضربت فرسي نشابة في أصل رقبتها فجاوزت فيها قدر شبر، فو الله ما رحمت وما قلقت ولا كأنها أحست بجرح، وأما جمعة رجع خوفاً على فرسه. فلما عدنا قلتيا أبا محمود ما قلت لك أنك تنهزم عني وأنت تلوم ابنك محموداً؟ قالوا لله ما خفت إلى على الفرس، فإنها تعز علي واعتذر.

أسامة يطعن رفيقه خطأ

وقد كنا ذلك اليوم التقينا نحن وخيل حماة وقد سبقهم بعضهم بالباقورة إلى الجزيرة، فاقتلنا نحن وهم وفيهم فرسان عسكري حماة سرهنك وغازي التلي ومحمود بن بلداجي وحضر الطوط واسباسيلار خطلخ وهم أكثر عدداً منا فحملنا عليهم فهزمناهم وقصدت فارساً أريد اطعنه وإذا هو حضر الطوط. فقال الصنيعة يا فلان! عدلت عنه إلى آخر قطعته فوق الرمح تحت إبطه، فلو تركته ما كان وقع فشد عضده عليه يريد أخذ الرمح والفرس منسدره بي فطار في السرج على رقبة الحصان فوق، ثم قام وهو على شفير الوادي المنحدر إلى الجلاي فضرب حصانه وساقه بين يديه ونزل، وحمدت الله سبحانه الذي ما ناله ضرر من تلك الطعنه لأنه كان غازي التلي وكان رحمه الله رجلاً جيداً.

جمعة يستخلص أسيراً

ونزل علينا عسكري إنطاكية في بعض الأيام منزلاً كان ينزله كلما نزل علينا. ونحن ركاب مقابلهم وبيننا النهر، فلم يقصدنا منهم أحد، وضربوا خيامهم ونزلوا فيها ورجعنا نحن نزلنا في دورنا ونحن نراهم من الحصن، فخرج من جندنا نحو من عشرين فارساً إلى بندرقتين، قريه بالقرب من البلد يرعون خيلهم، وقد تركوا رماحهم في دورهم، فخرج من الإفرنج فارساً سار إلى القريب من أولئك الجند الذين يرعون خيلهم فصادفاً رجل على الطريق يسوق بهمة فأخذوه وبهيمته ونحن نراهم من الحصن، وركب أولئك الجند ووقفوا ما معهم رماح. فقال عمياصروا الساعة ما يعمل، فلما دنا من الفارسين وهو يركض كفاء رأس فرسه وسار خلفهم سترة فلما رأى عمي توقفه عنهما، وهو على روشن في الحصن يراه، دخل من الروشن مغضباً وقالهذ خذلان! وكان توقف جمعة من جوررة كانت في يدي الفارسين لا يكون لهم فيها كمين، ولما وصل إلى تلك الجوررة وما فيها أحد أغار على الفارسين، خلص الرجل وبهيمته وطردهما إلى الخيام. وكان ابن ميمون صاحب إنطاكية يرى ما جرى، فلما وصل الفارسان أنفذ أخذ ترسيهما جعلهما معالف لدواب وربما خيمتهما وطردهما وقالقارس واحد من المسلمين يطرد فارسين من الإفرنج! ما انتم رجال أنتم نساء. وأما جمعة فوبخه وحرده عليه لوقوفه عنهما أول ما وصلهما، فقال يا مولاي خفت لا يكون لهم في الجوررة راييه

القرامطة كمين يخرج علي، فلما كشفتها وما رأيت فيها أحداً استخلصت الرجل والبهيمة وطردهما حتى دخلا عسكرهما . فلا والله ما قبل عذره ولا رضي عنه .

منزلة الفارس عند الأفرنج

والإفرنج خذلهم الله ما فيهم فضيلة من فضائل الناس سوى الشجاعة ولا عندهم تقدم ولا منزلة عالية إلا للفارس، ولا عندهم ناس إلا للفارس، فهم أصحاب الرأي وهم أصحاب القضاء والحكمة، وقد حاکمتهم مرة على قطعان غنم أخذها صاحب بانيس من الشعراء وبيننا وبينهم صلح، وأنا إذ ذاك بدمشق. فقلت للملك فلك بن فلك هذا تعدى علينا وأخذ دوابنا، وهو وقت ولاد الغنم، فولدت وماتت أولادها وردها علينا بعد أن أتلها. فقال للملك لستة سبعة من الفرس انقموا أعمالوا له حكماً، فخرجوا من مجلسه وأعتزلوا وتشاؤروا حتى أتفق رأيهم كلهم على شيء واحد وعادوا إلى مجلس الملك فقالوا قد حكمنا أن صاحب بانيس عليه غرامة ما أتل من غنمهم، فأمره الملك بالغرامة فوسل إلي وتقل علي وسألني حتى أخذت منه أربع مائة دينار. وهذا الحكم بعد أن تعقده الفرس ما يقدر الملك ولا أحد من مقدمي الأفرنج يغيره ولا ينقصه، فالفرس أمر عظيم عندهم. ولقد قال لي الملك يا فلان وحق ديني لقد فرحت البارحة فرحاً عظيماً. وما كنت اعتقد أنك فارس. قلت يا مولاي أنا فارس من جنسي وقومي. وإذا كان الفارس دقيقاً عظيماً كان أعجب لهم.

أمان تنكرد لا قيمة له

وهو أول وكان نزل علينا كندي أصحاب إنطاكية بعد ميمون، فقاتلنا ثم أصلحنا، فنفذ يطلب حصاناً لغلام لعمي عز الدين رحمه الله وكان فرساً جواداً، فنذره له عمي تحت رجل من أصحابنا كردي يقال له حسنون، وكان من الفرسان الشجعان وهو شاب مقبول الصورة دقيق ليسابق بالحصان بين يدي كندي. فسابق به فسبق الخيل الجراة كلها وحضر بين يدي دنكري فصار الفرسان يكشفون سواعده ويتعجبون من دقته وشبابه، وقد عرفوا أنه فارس شجاع فخلع عليه دنكري. فقال له حسنون يا مولاي أريدك تعطيني أمانك أنك أن ظفرت بي في القتال تصطنعني وتطلقني. فأعطاه أمانة على ما توهم حسنون فأهم لا يتكلمون إلا بالإنجليزية، ما ندري ما يقولونومضى على هذا سنة أو أكثر وأنقضت مدة الصلح، وجاءنا دنكري في عسكر إنطاكية فقاتلنا عند سور المدينة، وكانت خيلنا لقيت أوائلهم، فطعن فيهم رجل يقال له كامل المشطوب من أصحابنا كردي وهو وحسنون نظراء في الشجاعة، وحسنون واقف مع والدي رحمه الله على حجرة له ينتظر حصانه يأتيه به غلامه من عند البيطار ويأتيه كزاغندة، فأبطأ عليه وأقلقه طعن كامل المشطوب فقال والديا مولاي أمرلي بلباس خفيف. فقال هذه البغال عليها السلاح واقفة مهما صلح لك ألبسه . وأنا إذ ذاك واقف خلف والدي وأنا صبي وهو أول يوم رأيت فيه القتال. فظفر الكزاغندات في عيها على البغال فما وافقته وهو يغلي يريد يتقدم يعمل كما عمل كامل المشطوب، فتقدم على حجرته

وهو معرى فأعترضه فارس منهم فطعن الفرس في قطأهما فعضت على فاس اللجام وحملت به حتى رمته في وسط موكب الأفرنج فأخذوه أسيراً وعذبوه أنواع العذاب وأرادوا قلع عينه اليسرى فقال لهم دنكري لعنه الله أقلعوا عينه اليمين، حتى إذا حمل الترس أستررت عينه اليسار فلا يبقى يبصر شيئاً. فقلعوا عينه اليمين كما أمرهم وطلبوا منه ألف دينار وحصاناً أدهم كان لوالدي من خيل خفاجة جواداً من أحسن الخيل فاشتراه بالحصان رحمه الله. وكان خرج من شيزر في ذلك اليوم راجل كثير، فحمل عليهم الفرنج فما زرعوهم من مكائهم، فحرد دنكري وقال أنتم فرساني، وكل واحد منكم له ديوان مثل ديوان مائة مسلم. وهؤلاء سرجند (يعني رجالة) ما تقدرون تقلعون من موضعهم. قالوا إنما خوفنا على الخيل وإلا دسناهم وطعناهم قالا لخير لي، من قتل حصانه أحلفته عليه. فحملوا على الناس عدة حملات، فقلت منهم سبعون حصاناً ما قدروا يزرحونهم من مواقفهم.

فارس إفرنجي يهزم أربعة مسلمين

وكان بأفامية فارس من كبار فرسانهم يقال له بدرهوا، فكان أبداً يقول ترى ما ألتقي جمعة في القتال؟ وجمعة يقول ترى ما ألتقي بدرهوا في القتال؟ فنزل علينا عسكر إنطاكية وضرب خيامه في الموضع الذي كان ينزله وبيننا وبينهم الماء، ولنا موكب واقف على شرف مقابلهم، فركب فارس من الخيام وسار حتى وقف تحت موكبنا والماء بينه وبينهم، وصاح بهم فيكم جمعة؟ قالوا لا. والله ما كان حاضر فيهم. وكان ذلك الفارس بدرهوا فالتفت فرأى أربعة فوارس منا من ناحيتهم يحيى بن صافي وسهل بن أبي غانم الكردي وحرثة النميري وفارس آخر فحمل عليهم فهزمهم ولحق واحد منهم طعنه طعنة فشلة ما أحلقه حصانه ليتمكن الطعن وعاد إلى الخيام. ودخل أولئك نفر إلى البلد فافتضحوا وأستخفهم الناس ولا موهم وأزروا بهم وقالوا أربعة فوارس يهزمهم فارس واحد! كنتم افترقتم له فكان طعن واحداً منكم وكان الثلاثة قتلوه، ولا قد افترضتم. وكان أشد الناس عليهم جمعة النميري. فكان تلك الهزيمة منحتهم قلوباً غير قلوبهم وشجاعة ما كانوا يطمعون فيها فأنتمخوا وقاتلوا اشتبهوا في الحرب وصاروا من الفرسان المعدودين بعد تلك الهزيمة. وأما بدرهوا فإنه سار بعد ذلك من أفامية في بعض شغله يريد إنطاكية. فخرج عليه الأسد من غاب في الروج في طريقه فخطفه عن بغلته ودخل به إلى الغاب أكله، لا رحمه الله.

واخر يحمل على عسكر

ومن إقدام الرجل الواحد على الجمع الكثير فمن ذلك أن اسباسلار مودود رحمه الله نزل بظاهر شيزر يوم الخميس تاسع ربيع الأول سنة خمس وخمسة مائة وقد قصده دنكري صاحب إنطاكية في جمع كثير، فخرج إليه عمي ووالدي رحمهما الله وقالوا الصواب أن ترحل وتنزل في البلد، ويضرب العسكر خيامهم على السطوحات في المدينة، ونلقى الأفرنج بعد أن تحرز خيامنا وأتقنا. فرحل ونزل كما قالوا له، وأصبحا خرجا إليه وخرج من شيزر خمسة آلاف راجل معدين، ففرح بهم اسباسلار وقويت نفسه. وكان معه رحمه الله

رجال جياد فصفوا من قبلي الماء والإفرنج نزول شمالية، فمنعوهم من الشرب والورود نهارهم. فلما كان الليل رحلوا راجعين إلى بلادهم والناس حولهم، فنزلوا على تل الترمسي فمنعوهم الورود كما عملوا بالأمس فرحلوا في الليل ونزلوا على تل التلول والعسكر قد ضايقتهم ومنعهم من المسير فاحتاطوا بالماء ومنعوهم من الورود، ورحلوا في الليل متوجهين إلى افامية، ففرغ إليهم العسكر واحتاطوا بهم وهم سائرون، فخرج منهم فارس واحد فحمل على الناس حتى توسطهم فقتلوا حصانه واثخنوه بالجراح، فقاتل وهو راجل حتى وصل أصحابه. ودخل الأفرنج أرضهم، وعاد المسلمون عنهم. ومضى اسباسار مودود رحمة الله إلى دمشق، فجاءنا بعد اشهر كتاب دنكري صاحب إنطاكية مع فارس معه غلمان وأصحاب يقول هذا فارس محتشم من الأفرنج وصل حج ويريد الرجوع إلى بلاده، وسألني أن أسيره إليكم يبصر فرسانكم وقد نفذته فاستووا به. وكان شاب حسن الصورة حسن اللباس، إلا أن فيه آثار جراح كثيرة وفي وجهه ضربة سيف قد قدت من مفرقه إلى حكمته. فسألت عنه فقالوا هذا الذي حمل على عسكر اسباسار مودود وقتلوا حصانه، وقاتل حتى رجع إلى أصحابه. فتعالى الله القادر على ما يشاء كيف شاء لا يؤخر الأجل إلا حجام ولا يقدمه إلا قدام.

واحد يغزو ثمانية

ومن ذلك ما حكاه لي العقاب الشاعر رجل من أجنادنا من الغرب فالخرج أبي من تدمر يريد سوق دمشق ومعه أربعة فوارس وأربعة رجالة وهم يسوقون ثمانية جمال ليبيعوها. قالينا نحن نسير إذا فارس مقبل من صدر البرية، فجاء يسير حتى صار بالقرب منا فقاخلوا عن الجمال فصحننا عليه وشتمناه، فأطلق حصانه علينا فطعن منا فارساً رماه عن فرسه وجرحه، فطردناه فسبق، ثم عاد إلينا وقاخلوا عن الجمال! فصحننا عليه وشتمناه، فحمل علينا فطعن رجلاً منا أوثقه بالجرح، وتبعناه فسبقنا، ثم عاد وقد بطل منا رجلان فأطلق علينا فاستقبله رجل منا فطعنه صاحبا فوقعت الطعنة في قربوس سرجه فأنكسر رمح صاحبا، وطعنه الفارس فجرحه، ثم حمل علينا فطعن رجلاً منا فصرعه وقاخلوا على الجمال! وإلا أفيتكم. قلنا نعال خذ نصفها قاللا، أحبسوا منها أربعة أتركوها وقوفاً وخذوا أربعة وأمضوا، ففعلنا وما صدقنا نخلص بما سلم معنا، وساق هو تلك الأربعة ونحن نراه ما لنا فيه حيلة ولا طمع، وعاد بالغنيمة وهو وحده ونحن ثمانية رجال.

إفرنجي يستولي على مغار

ومن ذلك أن دنكري صاحب إنطاكية أغار على شيزر فاستاق دواب كثيرة وقتل وسبي، ونزل على قرية يقال لها زلين فيها مغار معلقه لا يوصل إليها في وسط الجبل، ما إليها من فوق منزل ولا إليها من أسفل مطلع، إنما ينزل إليها من يحتمي فيها بالحبال، وذلك يوم الخميس العشرين من ربيع الآخر سنة اثنين وخمسة مائة، فجاء شيطان من فرسانهم إلى دنكري فقالا عمل لي صندوقاً من الخشب وأنا أقعد فيه، ودلوني من

الجليل إليهم بسلاسل أو تقوها في الصندوق حتى لا يقطعوها بالسيف فأسقط. فعملوا له صندوقاً ودلوه بالسلاسل المعلقة إلى المغار، وأنزل كل من كان فيها إلى دنكري. وذلك أن المغار هو ما فيه مكان يستتر الناس فيه - وذلك يرميهم بالنشاب فلا تقع نشابة إلا في إنسان لضيق الموضع وكثرت الناس فيه.

عم أسامه يفك أسر مسلمة

وكان ممن أسر في جملة من أسر في ذلك اليوم امرأة كانت من أصل جيد من العرب وصفت لعمي عز الدين أبي العساكر سلطان رحمه الله قبل ذلك وهي في بيت أبيها. فأرسل عمي عجوزاً من أصحابه تبصرها فعادت تصفها وجمالها وعقلها أما لرغبة بدولها لها أما أروها غيرها، فخطبها عمي وتزوجها. فلما دخلت عليه رأى غير ما وصف له منها، ثم هي خرساء، فوفاها مهرها وردها إلى قومها، فأسرت من بيوت قومها ذلك اليوم فقال عميما أدع امرأة تزوجتها وانكشفت علي في أسر الإفرنج. فاشتراها رحمه الله بمائة دينار وسلمها إلى أهلها.

فطنة فتاة تركية

ومن ذلك ما حدثني به المؤيد الشاعر البغدادي بالموصل سنة خمس وستين وخمس مائة قلاقطع الخليفة والدي ضيعة وهو يتردد إليها وبها جماعة من العيارين يقطعون الطريق ووالدي يصانعهم خوفاً منهم وانفعاها بشيء مما يأخذونه. فنحن يوماً جلوساً بما أقبل غلام تركي على حصانه ومعه بغل رحل عليه خرج وجارية راكبه فوق الخرج فنزل وأنزل الجارية فقاليا فتیان، اسعدوني على حط الخرج، فجننا حططناه معه وإذا به كله دنانير ذهب ومصاغ، فجلس هو والجارية، أكلا شيئاً ثم قالاسعدوني على رفع الخرج، فرفعناه معه فقال لناكيف طريق الأنبار؟ فقال له والديالطريق ها هنا وأشار إلى الطريق ولكن في الطريق ستون عياراً أخاف عليك منهم. ففصرط له وقالأنا أخاف من العيارين! فتركه والدي ومضى إلى العيارين أخبرهم خبره وما معه، فخرجوا حتى عارضه في الطريق، فلما رأهم أخرج قوسه وترك فيه سهماً واستوفاه يريد يرميهم فانقطع الوتر، فهجم عليه العيارون فأنهزم، وأخذ البغل والجارية والخرج فقالت لهم الجارية يا شباب بالله لا تهتكوني وبيعوني نفسي والبغل أيضاً بعقد جوهر مع التركي قيمته خمس مائة دينار، وخذوا الخرج وما فيه قالوا قد فعلنا. ابعنوا لي بعضكم حتى أتحدث مع التركي وأخذ العقد، فبعنوا معها من يخطها حتى دنت من التركي وقالت لهلقد اشتريت نفسي والبغل بالعقد التي في ساق موزك خفك اليسار فادفعه لي. قالنعم. وانفسح عنهم وأخرج الساق موزا وإذا فيه وتر قوس، فركبه على قوسه ورجع إليهم. فما زالوا يقاتله وهو يقتل منهم واحداً واحداً حتى قتل منهم ثلاثة وأربعين رجلاً. ونظر فإذا والدي في جماعة الباقين من العيارين فقالوأنت فيهم! فتشتهي أعطيك نصيبك من النشاب! قاللا. قالخذ هؤلاء السبعة عشر الباقين أمض بهم إلى شحنة البلد يشنقهم واولائك قد زهروا ورموا سلاحهم. وساق بغله بما عليه ومضى، وقد أرسل الله تعالى على العيارين منه مصيبة وسخطة عظيمة.

مغامرات أخرى

ومن ذلك ما حضرته في سنة تسع وخمسمائة وقد خرج والذي رحمه الله بالعسكر إلى اسباسلار برسق رحمه الله وقد وصل بأمر السلطان إلى الغزاة وهو في خلق عظيم وجماعة من الأمراء منهم أمير الجيوش اوزبه صاحب الموصل، وسنقرد راز صاحب الرحبة والأمير كندغندي، والحاجب الكبير بكتمر، وزنكي بن برسق وكان من الأبطال، وتميرك، وإسماعيل البكجي وغيرهم من الأمراء. فنزلوا على كفر طاب وفيها أخوا ثويقل والإفرنج فقاتلوا ودخلوا الخرسانية في الخندق ينقبون، والإفرنج قد أيقنوا بالهلاك فطرحوا النار بالحصن فأحرقوا السقوف فوقعت على الخيل والدواب والغنم والخنازير والأسارى فاحترق الجميع وبقي الأفرنج معلقين في أعلاه على الحيطان. فوقع لي أن أدخل في النقب أبصره فتزلت في الخندق، والنشاب والحجار مثل المطر علينا ودخلت النقب فرأيت حكمة عظيمة قد نقبوا من الخندق إلى الباشورة وأقاموا في جوانب النقب قائمتين وعليهما عرضية تمنع من تهدم ما فوقها ونظموا النقب بالأخشاب كذلك إلى أساس الباشورة وعلقوه وبلغوا أساس البرج وحملوه على الأخشاب ويخرجون نقارة الحجار اولاً فأولاً. وأرض النقب من النقش قد صارت طيناً، فرأيته وخرجت ولم يعرفني الخرسانية، ولو عرفوني ما تركوني أخرج إلا بغرامة كثيرة لهم. وشرعوا في تقطيع الخشب اليابس وحشوا النقب بذلك الخشب واصبحوا طرحوا فيه النار. وقد لبسنا وزحفنا إلى الخندق لنهجم الحصن إذا وقع البرج وعلينا من الحجارة والنشاب بلاء عظيم. فأول ما عملت النار صار يسقط ما بين الحجار من تكحيل الكلس ثم انشق واتسع الشق ووقع البرج، ونحن نظن إذا وقع تمكن من الدخول عليهم، فوقع الوجه البراني وبقي الحائط الجواني كما هو فوقفنا إلى ان خيمت علينا الشمس ورجعنا إلى خيامنا، وقد نالنا من الحجارة أذى كثير.

فمكثنا إلى الظهر وإذا قد خرج من العسكر راجل واحد معه سيفه وترسه فمضى إلى حائط البرج الذي قد وقع وقد صارت جوانبه كدرج السلم فتوقل فيه حتى صعدا أعلاه، فلما رآه رجال العسكر تبعه منهم قدر عشرة رجال تسرعوا بعدتهم فصعدوا واحداً وراء واحد حتى صاروا على البرج والإفرنج لا يشعرون بهم. ولبسنا نحن من الخيام وزحفنا، فكثروا على البرج قبل أن يتكامل الناس عندهم. ففرغ إليهم الإفرنج فرموهم بالنشاب فجرحوا الذي طلع في الأول فنزل. وتتابع الناس في الطلوع وصاروا مع الإفرنج على بدن من الحيطان البرج وبين يديهم برج في بابه فارس لابس ومعه ترسه وقطاريته يحمي من دخول البرج، وعلى البرج جماعة من الإفرنج يقاتلون الناس بالنشاب والحجارة، فصعد رجل من الأتراك ونحن نراه، ومشى والبلاء يأخذه إلى أن دنا من البرج وضرب الذي عليه بقارورة نطف فرأيته كالشهاب على تلك الحجارة إليهم، وقد رموا نفوسهم إلى الأرض خوفاً من الحريق، ثم عاد. وطلع آخر يمشي على البدن ومعه سيف وترس، فخرج عليه من البرج الذي في بابه الفارس رجل منهم عليه زرديتان وبيده قنطارية وما معه ترس، فلقيه التركي وفي يده سيفه قطعنه الإفرنجي فدفع سنان قنطارية عنه بالترس ومشى إلى الإفرنجي وقد دخل على الرمح إليه، فولى عنه وأدار ظهره وأمال ظهره كالراكع خوفاً على رأسه، فضربه التركي ما عملت فيه شيئاً، ومشى حتى دخل البرج وقوي عليهم الناس وتكاثروا، فسلموا الحصن ونزل لأسارى إلى الخيام برسق

بن برسق. فشاهدت ذلك الذي خرج بقنطاربته على التركي وقد جمعهم في سرادق برسق بن برسق ليقطعوا على نفوسهم ثمناً يخلصون به، فوقف وكان سرجندياً وقالكم تأخذون مني؟ قالوا نريد ستمائة دينار. فضرط لهم وقالنا سرجندي ديواني كل شهر ديناران، من أين لي ستمائة دينار؟ وعاد جلس بين أصحابه، وكان حلقة عظيمة. فقال الأمير سيد الشريف وكان من كبار الأمراء لوالدي رحمهما اللهيما أخي ترى هؤلاء القوم؟ نعوذ بالله منهم. فقضى سبحانه ان العسكر رحل من كفر طاب إلى دانيث وصحبهم عسكر إنطاكية يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من ربيع الآخر. وكان تسليم كفر طاب يوم الجمعة ثالث عشر ربيع الآخر، فقتل الأمير سيد رحمه الله وخلق كثير من المسلمين. وعاد الوالد رحمه الله وكتب قد فارقتهم من كفر طاب وقد كسر العسكر، ونحن في كفر طاب نحزها نريد نعمرها، وكان اسباسلار سلمها إلينا ونحن نخرج الأسرى كل اثنين في قيد من أهل شيزر وقد احترق نصف ذا وقد بقيت فخذة، وذا قد مات في النار، فرأيت منهم عبرة عظيمة فتركتها وعدنا إلى شيزر مع الوالد رحمه الله، وقد أخذ كل ما كان معه من الخيام والجمال والبغال والبرك والتحمل وتفرق العسكر.

مكيدة لؤلؤ

وكان ما جرى عليهم بمكيدة من لؤلؤ لخدام صاحب حلب ذلك الوقت، قرر مع صاحب إنطاكية أن يحتال عليهم ويفرقهم ويخرج ذلك من إنطاكية بعسكره يكسرهم. فأرسل إلى اسباسلار برسق رحمه الله يقولتنفذ لي بعض الأمراء ومعه جماعة من العسكر أسلم إليهم حلب، فإني أخاف من أهل البلد ان لا يطاوعني على التسليم، فأريد أن يكون مع الأمير جماعة أقوى بهم على الحلبيين. فنفذ إليه أمير الجيوش أرزبة ومعه ثلاثة آلاف فارس وصحبهم رو جار لعنه الله، كسرهم لنفاذ المشيئة. وعاد الإفرنج لعنهم الله إلى كفر طاب عمروها وسكوها. وقدر الله تعالى ان خلص الأسرى من الفرنج الذين أخذوا من كفر طاب. فإن الأمراء اقتسموهم وأبقوهم معهم ليشتروا أنفسهم إلى ما كان من أمير الجيوش فإنه تقدم الذين طلوعوا في سهمه. ضرب رقاب جميعهم قبل أن يتوجه إلى حلب. وافترق العسكر - من سلم منهم من دانيث - وتوجهوا إلى بلادهم، فذلك الرجل الذي طلع وحده إلى برج كفر طاب كان سبب أخذها.

نمير يستولي على مغارة الإفرنج

ومن ذلككان في خدمتي رجل يقال له نمير العلار وزبي، راجل شجاع هض هو وقوم من رجال شيزر إلى الراج إلى الإفرنج، فعثروا في البلد على قافلة من الإفرنج في مغارة. فقال بعضهم لبعضمن يدخل عليهم قال نمير أنا، فدفع إليهم سيفه وترسه وجذب سكينه ودخل عليهم فاستقبله رجل منهم فضربه بالسكين رماه وبرك عليه يقتله وخلفه إفرنجي معه سيف فضربه وعلى ظهر نمير مزود فيه خبز فهو يرد عنه، فلما قتل الرجل الذي تحته ألقت إلى صاحب السيف يريده فضربه بالسيف في جانب وجهه فقطع حاجبه وجفن عينه وحده وأنفه وشفته العليا، فتدلى جانب وجهه على صدره فخرج من المغارة إلى أصحابه فشدوا جرحه

ورجعوا إليه في ليلة باردة مطرة، فوصل شيزر وهو على تلك الحالة، فخيط وجهه وداوى جراحه فبرأ وعاد إلى مكان عليه، إلا أن عينه تلفت وهو أحد الثلاثة الذين رماهم الإسماعيلية من حصن شيزر وقد تقد ذكرهم .

واحد يهزم قوماً في رفية

وحدثني الرئيس سهري وكان في خدمت الأمير شمس الخواص التوتناش صاحب رفية وكان بينه وبين علم الدين علي كرد صاحب حماة عداوة وخلف، فالأمري شمس الخواص أن أخرج أقدر بلد رفية وابصر زرعه، فخرجت ومعي قوماً من الجنود. قدرت البلد، ونزلت ليلة عند المساء بقرية من قرى الرفية لها برج صعدنا إلى سطحه تعشينا وجلسنا وخيلنا على باب البرج، فما شعرنا إلى برجل قد أشرف علينا من بين شراشيف البرج فصاح علينا ورمى نفسه إلينا وفي يده سكينه فنهزمنا ونزلنا في السلم الأول وهو خلفنا، ونزلنا في السلم الثاني وهو خلفنا حتى وصلنا الباب فخرجنا وإذا قد رتب لنل رجلاً على الباب فقبضونا جميعنا وأوثقونا رباطاً ودخلوا بنا حماة علي كرد، فما سلمنا من ضرب الرقبة إلا بفسحة الأجل، فحبسنا وغرمنا، وكان الذي فعل بنا ذلك كله رجل واحد .

ابن المرجي يستولي على حصن

ومثل ذلك جرى في حصن الخربة، كانت لصالح الدين محمد بن أيوب الغسياني رحمه الله وفيها الحاجب عيسى واليهما، وهو حصن منيع على صخرة مرتفعة من جميع جوانبه يطلع إليه بسلم خشب ثم يرفع السلم فلا يبقى إليها طريق، وليس مع الولي في الحصن سوى ابنه وغلومه وبواب الحصن وله صاحب يقال له ابن المرجي يطلع إليه في الوقت بعد الوقت في أشغاله، فنحدث مع الأسماعيلية وقرر معهم قراراً أرضاه، من مال واقطاع ويسلم إليهم الحصن الخربة، ثم جاء إلى الحصن فاستأذن وطلع فبدأ بالباب، قتله فلقيا الغلام فقتله ودخل على الوالي قتله وسلمه إلى الإسماعيلية، وقاموا له بما كانوا قرروه له. والرجال إذا قوا أنفسهم على شيء فعلوه.

مروءة مكار نصراني

ومن ذلك تفاضل الرجال في همهم ونحوهم، وكان الوالد رحمه الله يقول لي " كل جيد من سائر الأجناس، من الرديء من جنسه ما يكون بقيمته، مثل حصان جيد يساوي مائة دينار، خمس حصن رديئة تساوي مائة دينار وكذلك الجمال وكذلك أنواع الملبوس، إلا ابن آدم فإن ألف رجل أرد ياء لا يساؤون رجلاً واحداً جيداً " . وصدق رحمه الله.

كنت قد نفذت مملوكاً لي في شغل مهم إلى دمشق واتفق أن أتاك زنكي رحمه الله أخذ حماة ونزل على حمص، فاشتدت الطريق على صاحبي فتوجه إلى بعليك ومنها إلى طرابلس واكثرى بغل رجل نصراني يقال له يونان فحمله إلى حيث اكتراه وودعه، ورجع وخرج صاحبي في قافلة يريد يتوصل إلى شيزر من حصون

الجليل فلقبيهم إنسان فقال لأرباب الدواب لا تمضوا فإن في طريقكم في الموضع الفلاني عقد حرامية في ستين سبعين رجلا يأخذونكم قالموقنا لا ندري ما نعمل، ما تطيب نفوسنا بالرجوع ولا نجسر على المسير من الخوف، فنحن كذلك إذا الرئيس يونان قد أقبل مسرعاً. فقلنا ما لك يا ريس؟ قال سمعت أن في طريقكم حرامية جئت لأسيركم، سيروا. فسرنا معه إلى ذلك الموضع، وإذا قد نزل من الجبل خلق عظيم من الحرامية يريدون أخذنا فلقبيهم يونان وقالوا فينا موضعكم! أنا يونان وهؤلاء في خفاري، والله جميعهم عنا وما أكلوا من عندنا رغيف خبز، ومشى معنا يونان حتى أمنا ثم ودعنا وأنصرف.

وفاء بدوي

وحكى لي صاحبي هذا عن ابن صاحب الطور وكان طلع معي من مصر في سنة ثمان وثلاثين وخمس مائة، قال حدثني ابن والي الطور وهي ولاية لمصر بعيدة، كان الحافظ لدين الله رحمه الله، إذا أراد أبعاد بعض الأمراء ولاءه الطور وهو قريب لبلاد الأفرنج. قالوا ليها والدي وخرجت أنا معه إلى الولاية وكت مغرى بالصيد فخرجت أتصيد فوقع بي قوم من الأفرنج فأخذوني ومضوا بي إلى بيت جبريل فحبسوني فيه في جب وحدي وقطع علي صاحب بيت جبريل ألفي دينار، فبقيت في الجب سنة لا يسأل عني أحد، فأنا في بعض الأيام في الجب وإذا قد رفع عنه الغطاء ودلي إلي رجل بدوي. فقلتمن أين أخذوك؟ قال من الطريق، فأقام عندي يوميات وقطعوا عليه خمسين ديناراً، فقال لي يوماً من الأيام تريد تعلم أن ما يخلصك من هذا الجب إلا أنا؟ فخلصني حتى أخلصك. فقلت في نفسي رجل قد وقع في شدة يريد لروحه الخلاص، فما جاوبته. ثم بعد أيام أعاد علي ذلك القول. فقلت في نفسي والله لأسعين في خلاصه لعل الله يخلصني بثوابه. فصحت بالسجن فقلت لهقل للصاحب أشتهي أتحدث معك. فعاد وأطلعني من الجب وأحضرني عند الصاحب. فقلت لهلي في حبسك سنة ما سأل أحد عني ولا يدري أنا حي أو ميت، وقد حبست عندي هذا البدوي وقطعت عليه خمسين ديناراً أجعلها زيادة على قطيعتي ودعني أسيره إلى أبي حتى يفكني. قال لا فعل. فرجعت عرفت البدوي وخرج ودعني ومضى. فانتظرت ما يكون منه شهرين فما رأيت له أثراً ولا سمعت له خبراً فيست منه فما راعني ليلة من الليالي إلا وهو قد خرج علي من نقب في جانب الجب، وقالقم والله لي خمسة أشهر أحفر هذا السرب من قرية خربة حتى وصلت إليك. فقمت معه وخرجنا من ذلك السرب وكسر قيدي وأوصلني إلى بيتي فما أدري مم أعجب من حسن وفائه أو من هدايته حتى طلع نقبه من جانب الجب. وإذا قضى الله سبحانه بالفرج فما أسهل أسبابه.

أسامة يفتدي الأسرى

كنت أتردد إلى ملك الأفرنج في الصلح بينه وبين جمال الدين محمد بن تاج الملوك رحمه الله ليد كانت للوالد رحمه الله على بغدوين الملك والد الملكة امرأة الملك فلك بن فلك، فكان الأفرنج يسوقون أسراهم إلي لأشترتهم، فكنت أشترى منهم من سهل الله تعالى خلاصه. فخرج شيطان منهم يدعى كليوم جيباً في موكب

له يغزي فأخذ مركباً فيه حجاج من المغاربة نحو أربع مائة نفس رجال ونساء. فكان يجيء أقوام مع مالكمهم فأشترى منهم من قدرت على شراه، وفيهم رجل شاب يسلم ويقعد لا يتكلم، فسألت عنه فقيل لي هو رجل زاهد صاحب دباغ. فقلت له بكم تبيعني هذه، قالو حق ديني ما أبيع إلا هو وهذا الشيخ جملة كما أشتريتكما بثلاثة وأربعين ديناراً، فأشتريتكما اشتريت لي منهم نفرأ، اشتريت للأمير معين رحمه الله منهم نفرأ بمائة وعشرين ديناراً ووزنت ما كان معي وضمنت علي الباقي. وجات إلى دمشق فقلت للأمير معين الدين رحمه الله لقد اشتريت لك أسارى أختصك بهم، وما كان معي ثمنهم. والآن قد وصلت إلى بيتي إن أردتم وزنت ثمنهم وإلا وزنته أنا. قالوا بل أنا أزن والله ثمنهم وأنا أرغب الناس في ثوابهم. وكان رحمه الله أسرع الناس إلى فعل خير وكسب مثوبة ووزن ثمنهم. وعدت بعد أيام إلى عكا. وقد بقي من الأسرى عند كليوم جييا ثمانية وثلاثون أسيراً وفيهم امرأة لبعض الذين خلصهم الله تعالى على يدي فاشتريتها منه، وما وزنت ثمنها، فركبت إلى داره لعنه الله، وقتلتبيني منهم عشرة؟ قال وحق ديني ما أبيع إلا الجميع. قلتما معي ثمن الجميع، وأنا أشترى بعضهم، والتوبة الأخرى أشترى الباقي. قالما أبيعك إلا الجميع. فانصرفت وقدر الله سبحانه أنهم هربوا في تلك الليلة جميعهم وسكان ضياع عكا كلهم من المسلمين إذا وصل إليهم الأسير آخوه وأوصلوه إلى بلاد الإسلام. وتطلبهم ذلك الملعون فما ظفر منهم بأحد وأحسن الله سبحانه خلاصهم، وأصبح يطالبني بثمان المرأة التي كت اشتريتها وما وزنت ثمنها وقد هربت في من هرب. فقلتسلمها إلي وخذ ثمنها. قالتسمنها لي من أمس قبل أن تمرب. وألزميني بوزن ثمنها، فوزنته وهان ذلك علي لمسرتي بخلاص أولئك المساكين.

عجائب السلامة في آمد

ومن عجائب السلامة إذا جرى بها القدر وسبقت بها المشيئة أن الأمير فخر الدين قرا أرسلان بن سقمان بن أرتق رحمه الله، عمل على مدينة آمد عدة مرار وأنا بخدمته، ولا يبلغ منها مقصوده. وكان آخر ما عمل عليها ان أمير من الأكراد كان مديوناً بآمد رسالة ومعه جماعة من أصحابه وقرر الأمر ان يصله العساكر في ليلة تواعدوا إليها ويطلعهم بالحبال ويملك آمد. فعول فخر الدين في ذلك المهم على خادم له إفرنجي يقال له ياروق والعسكر كله يمقته ويكرهه لسوء أخلاقه، فركب في بعض العسكر وتقدم، وركب باقي الأمراء فتبعوه وتوان هو في السير فسبقه الأمراء إلى آمد، فأشرف عليهم ذلك الأمير الكردي وأصحابه من بروج ودلوا إليهم الحبال وقالوا اطلعوا - ما طلع منهم أحد. فنزلوا كسروا أقفال باب المدينة وقالوا أدخلوا - ما دخلوا. كل ذلك لأعتماد فخر الدين على صبي جاهل في هذا المهم العظيم دون الأمراء الكبار. وعلم بذلك الأمير كمال الدين علي بن نيسان والبلدية والجند ففرغوا إليهم فقتلوا بعضهم ورمى بعضهم نفسه وقبضوا بعضهم. ومد بعض الذين رموا نفوسهم وهو نازل بالهواء، يده كأنه يريد شيء يتمسك به، فوقع في يده حبل من تلك الحبال التي دلوها أول الليل وما طلوعوا فيها فتعلق بها ونجا دون أصحابه إلا أن كفيه انسلختا من الحبل، هذا وأنا حاضر. وأصبح صاحب آمد يتبع الذين عملوا عليه فقتلهم، وسلم ذلك من دونهم فسبحانه من إذا قدر السلامة أنقذ الإنسان من لثة الأسد فذلك حق لا مثيل.

الإنتقاذ من لهأة الأسد

كان في حصن الجسر رجل من أصحابنا من بني كنانة يعرف بابن الأحمر ركب فرسه من حصن الجسر يريد كفرطاب لشغل له، فاجتاز بكفر نبوذا وقافلة عابرة على الطريق فرأوا الأسد ومع ابن الأحمر حربة تلمع، فصاح إليه أهل القافلة يا صاحب الحشب البراق دونك الأسد! فحملة الحياء من صياحهم أن حمل على الأسد فحاصت به الفرس فوق فجاج فبرك عليه. وكان لما يريد الله من سلامته، الأسد شبعان فالتقم وجهه وجبهته فجرح وجهه وصار يلحس الدم وهو بارك عليه لا يؤذيه. فقال لفتحت عيني فأبصرت لها الأسد، ثم جذبت نفسي من تحته ورفعت فخذة عني وخرجت، تعلقت بشجرة بالقرب منه وصعدت فيها، فراي وجاء خلفي، فسبقت وطلعت في الشجرة، فنام الأسد تحت الشجرة وعلاي من الذر شيء عظيم على تلك الجراح والذر يطلب جريح الأسد كما يطلب الفأر جريح النمر. قال فرأيت الأسد قد قعد وأنصب آذانه كأنه يتسمع، ثم قام يهرول، فإذا قافلة قد أقبلت على الطريق كأنه سمع حسها. فعرفوه وحملوه على بيته، وكان أثر أنياب السبع في جبهته وخديه كوسم النار فسبحان المسلم.

العقل والقتال

قلت تفاوضنا يوماً في ذكر القتال ومؤدبي الشيخ العالم ابو عبد الله محمد بن يوسف المعروف بابن المنيرة رحمه الله يسمع فقلت لهما أستاذ لو ركبت حصاناً ولبست كراغندا وخوذة وتقلدت سيفاً وحملت رمحاً وترساً ووقفت عند مشهد العاصي موضع ضيق كان الإفرنج لعنهم الله يجتازون به مل كان يجوزك أحد منهم. قال بلبي والله موكلكم قلنكانوا يهابونك ولا يعرفونك. قال سبحان الله! فأنا ما أعرف نفسي! ثم قال لي يا فلان ما يقاتل عاقل. قلت يا أستاذ تحكم على فلان وفلان وعددت له رجالاً من أصحابنا من شجعان الفرسان أنهم مجانين! قال ماذا قصدت إنما العقل لا يحضر وقت القتال. ولو حضر ما كان لأنسان يلقي بوجهه السيوف وبصدره الرماح والسهام، ما هذا شيء يقضي به العقل. وكان رحمه الله بالعلم أخير مما هو بالخبر، فإن العقل هو الذي يحمل على الأقدام على السيوف والرماح والسهام انفه من موقف الجبان وسوء الاحوثة. ودليل ذلك ان الشجاع يلحقه الزمع والرعدة وتغير اللون قبل دخوله في الحرب لما يفكر فيه وتحدث به نفسه مما يريد يعمل ويباشره من الخطر، والنفس ترتاع لذلك وتكرهه، فإذا دخل في الحرب وخاض غمارها ذهب عنه ذلك الزمع والرعدة وتغير اللون. وكل أمر لا يحضره العقل يظهر فيه الخطأ والزلل.

الذهول وعواقبه

ومن ذلك أن الفرنج نزلوا مرة حماة في ازوارها، وفيها زرع محصب، فضربوا خيامهم في ذلك الزرع، وخرج من شيزر جماعة من الحرامية يدورون بعسكر الفرنج يسرقون منه، فرأوا الخيام بالزرع، فأصبح بعضهم أخبر صاحب حماة وقال ليلة أحرق عسكر الإفرنج كله. قال إن فعلت خلعت عليك. فلما أمسى

خرج ومعه نفر على رأيه. قالطرحوا النار غربي الخيام في الزرع لتسوقها الرياح إلى خيامهم، فصار الليل بضوء النار كالنهار، فرآهم الإفرنج فقصدوهم فقتلوا أكثرهم، وما نجي منهم إلا من رمى نفسه بالماء وسبح إلى الجانب الآخر، فهذه أثار الجهل وعواقبه. ورأيت مثل ذلك، وإن لم يكن بالحرب، وقد عسكر الإفرنج على بانياس في جمع كثير ومعه البطرك، وقد ضرب خيمة كبيرة جعلها كنيسة يصلون فيها يتولى خدمتها شيخ شماس منهم وقد فرش أرضها بالخلفاء والحشيش لتحترق البراغيث، فطرح فيه النار وقد يس، فارتفعت ألسنتها وعلقت بالخيمة فتركتها رماداً فهذا لم يحضره العقل .

حاضر الذهن تحت الأسد

وضده أننا ركبتا في بعض الأيام من شيزر إلى الصيد وعمي رحمه الله معنا وجماعة من العسكر، فخرج علينا السبع من قصباء دخلناها لصيد الدراج. فحمل عليه رجل كردي يقال له زهر الدولة بختيار القبرصي سمي بذلك للطف خلقتة وكان رحمه الله من فرسان المسلمين فستقبله السبع فحاص به الحصان فرماه، وجاء السبع وهو ملقى، فرفع رجله فلقمها السبع وبادرناه فقتلنا السبع واستخلصناه وهو سالم. فقلنا له يا زهر الدولة لما رفعت رجلك إلى فم السبع؟ فقالجسمي كما ترونه ضعيف نحيف، وعلي ثوب وغلالة وما في أكسا من رجلي فيها الرنات والخف والساق موزا. فقللتاشغله بما عن أضلاعي أويدي أوراسي إلى أن يفرج الله تعالى. فهذا حضره العقل في موضع ترول فيه العقول وأولئك ما حضرهم العقل. فلإنسان أحوج إلى العقل من كل ما سواه، وهو محمود عند العاقل والجاهل .

عم أسامة وحسن إدارته

ومن ذلك أن روجار صاحب إنطاكية كتب إلى عمي يقولقد نفذت فارس من فرساني في شغل مهم إلى القدس، أسأل أن تنفذ خيلك تأخذه أفامية ويوصلنه إلى رفية. فركب وأرسل إليه من أحضره فلا لقيه قالقد نفذني صاحبي في شغل وسر له، لكنني لقيتك رجلاً عقلاً فأنا أحدثك به فقال له عميمن أين عرفت أنني عاقل وما رأييني قبل الساعة؟ قاللأني رأيت البلاد التي مشيت فيها خربه وبلدك عامر فعرفت أنك ما عمرتها إلا بعقلك وسياستك، وحدثه ما جاء فيه .

تعقل صاحب ديار بكر

وحدثني الأمير فضل بن أبي الهيجاء صاحب أربل قالحديثي أبو الهيجاء قالبعثني السلطان ملك شاه لما وصل الشام إلى الأمير ابن مروان صاحب ديار بكر يقول أريد ثلاثين ألف دينار، فاجتمعت به واعدت عليه الرسالة. فقالتستريح وتحدث، واصبح أمر ان يدخلوني الحمام ونف آلة الحمام جميعها فضة ونفذ لي بدلة ثياب. وقالوا لفراشيكل آلة الحمام لكم. فلما خرجت لبست ثيابي ورددت جميع الحوائج، فتركتني أيام ثم أمر لي بحمام وما أنكر رد الحوائج، وحملوا معي آلة الحمام افضل من الآلة الأولى وبدلة الثياب أفضل من البدلة

الاوله وقال القراش لفراشي كما قال اولاً. فلما خرجت لبست ثيابي ورددت الحوائج والنياب، فتركي ثلاثة أربعة أيام ثم عاد ادخلني ثم عاد وادخلني إلى الحمام وحملوا معي الآت فضه أفضل من الآلة وبدلة ثياب افضل من الاوله. فلما خرجت لبست ثيابي ورددت الجميع. فلما حضرت عند الأمير قال لييا ولدي نفذت إليك ثياب ما لبستها، وآلة حمام ما قبلتها ورددتها، أي شيء سبب هذا؟ قلتيا مولاي جئت برسالة السلطان في شغل ما انقضى، اقبل ما تفضلت به وارجع وما انقضى شغل السلطان فكأنني ما جئت إلا في حاجتي؟ قاليا ولدي ما رأيت عمارت بلادي وكثرة خيرها وبساتينها وكثرة فلاحيتها وعمارة ضياعها؟ أتراني أتلف هذا كله من أجل ثلاثين ألف دينار؟ والله إن الذهب قد كيسته من وقت وصولك، وإنما انتظرت ان يتجاوز السلطان بلادي وتلحقه بالمال خوفاً من أن استقبله بالذي طلب فيطلب مني إذا دنا من بلادي أضعافه فلا تشغل قلبك، فشغلك قد انقضى، ثم نفذ لي ثلاث بدلات التي كان نفذها لي في الثلاث دخلات فقبلتها. ولما تجاوز السلطان ديار بكر أعطاني المال فحملته ولحقت به السلطان.

حسن سياسة صاحب بدليس

وفي حسن السياسة ربح كثير من عمارة البلاد. فمن ذلك ان أتاك زنكي رحمه الله خطب بنت صاحب خلاط وقد مات أبوها وأمها مدبرت البلدي. ونفذ حسام الدولة بن دماج خطبها لأبنة وهو صاحب بدليس. فسار أتاك بعسكر حسن إلى خلاط على غير الطريق المسلوك لأجل درب بدليس. فسلك فيها الجبال فكنا ننزل بغير خيام، وكل واحد في موضعه من طريق حتى وصلنا خلاط، فخيم أتاك عليها ودخلنا قلعتها وكتبنا المهر. فلما انقضى الشغل فأمر صلاح الدين معظم العسكر ويسري إلى بدليس يقاتلها. فركبنا أول الليل وسرنا وأصبحنا على بدليس، فخرج إلينا حسام الدولة صاحبها فلقينا على فسحة من البلد وأنزل صلاح الدين في الميدان وحمل إليه الضيافة الحسنة، وخدمه وشرب عنده في الميدان وقال يا مولاي أي شيء ترسم؟ تعنيت وتعبت في مجيئك. قال أتاك احنقه خطبتك للبت التي كان خطبها، وأنت بذلت لهم عشرة آلاف دينار نريدها منك. قال السمع والطاعة. فعجل له بعض المال واستمهله بباقيه أياماً عينها، ورجعنا وبلده بحسن سياسته عامر ما دخل عليه خلل.

وصاحب قلعة جعبر

وهذا قريب ممن جرى لنجم الدولة مالك بن سالم رحمه الله. وذلك ان جوسلين أغار على الرقة والقلعة فأخذ كل ما عليها وسبى وساق غنائم كثيرة ونزل مقابل القلعة وبينهم الفرات، فركب نجم الدولة مالك في زورق ومعه ثلاثة أربعة من غلمانه وعبر الفرات إلى جوسلين وبينهما معرفة قديمة، ولما مالك عليه جميل. وظن جوسلين ان في الزورق رسولاً من مالك، فجاءه واحد من الإفرنج وقال هذا مالك في الزورق قالما هو صحيح. فآته أخر قالقد نزل مالك من الزورق وهو جاءني يمشي. فقام جوسلين والنقا وأكرمه ورد عليه جميع ما كان أخذه من الغنائم والسبي، ولولا سياسة نجم الدولة كان خرب بلده.

الشدة التي لا تنفع

إذا أنقضت المدة لم تنفع الشجاعة ولا الشدة.

شاهدت يوماً وقد زحف إلينا عسكر الإفرنج يقاتلنا، ومضى بعضهم مع طغديكين أتاك إلى الحصن الجسر يقاتله. وكان أتاك اجتمع هو وإيلغازي بن أرتق والإفرنج في اقامية لمحاربة عساكر السلطان. وكان وصل بها إلى الشام اسباسلار برسق بن برسق وقد نزل حماة يوم الأحد تاسع عشر محرم سنة تسع وخمس مائة. فأما نحن فما قتلونا بالقرب من سور المدينة، فاستظهرنا عليهم ودفعناهم وانبسطنا معهم، فشاهدت رجلاً من أصحابنا يقال له محمد بن سرايا شاب شديد ايد قد حمل عليه فارس من الإفرنج لعنه الله قطعنه في فخذه فنفذ القنطارية فيها، فمسكها محمد وهي في فخذه، وجعل الإفرنجي يجذبها ليأخذها ومحمد يجذبها ليأخذها فترجع في فخذه حتى قورت فخذه. واستلب القنطارية بعد أن تلف فخذه، ومات بعد يومين رحمه الله.

إنقاذ فارس

ورأيت في ذلك اليوم وأنا في جانب الناس في القتال، فارساً قد حمل على فارس منا طعن حصانه قتله، وصاحبنا راجل في الأرض ولا أدري من هو لعبد ما بيننا، فدفعت حصاني إليه خوفاً عليه من الإفرنجي الذي طعنه، وقد بقيت القنطارية في الحصان وهو ميت قد خرجت مصارينه، والإفرنجي الذي طعنه، وقد بقيت القنطارية في الحصان وهو ميت قد خرجت مصارينه، فلا وصلته وجدته ابن عمي ناصر الدولة كامل بن مقلد رحمه الله فوقفت عليه واخليت له ركابي وقلت اركب فلما ركب رددت رأس الحصان إلى المغرب والمدينة من شرقنا. قال ليلى أين تروح؟ قلت إلى هذا الذي طعن حصانك فهو فرصة. فمد يده وقبض على عنان الحصان وقالما تطاعن وعلى حصانك لا بسان، إذا أوصلتني ارجع طاعنه. فمضيت أوصلته وعدت إلى ذلك الكلب وقد دخل في أصحابه.

مؤمن تنقذه العناية الإلهية

وشاهدت من لطف الله تعالى وحسن دفاعه أن الإفرنج لعنهم الله نزلوا علينا بالفارس والراجل. وبيننا وبينهم العاصي وهو زائد زيادة عظيمة لا يمكنهم أن يجوزا إلينا ولا نقلر

نحن أن نجوز إليهم، فنزلوا على الجبل بخيامهم ونزل منهم قوم إلى البساتين وهي من جانبهم، هملوا خيلهم بالقصيل وناموا، فجرد شباب من رجال شيرز وخلعوا ثيابهم وأخذوا سيوفهم وسبحوا إلى أولئك النيام فقتلوا بعضهم وتكاثروا على اصحبنا، فرموا نفوسهم إلى الماء وجازوا، وعسكر الفرنج قد ركب من الجبل مثل السيل، ومن جانبهم مسجد يعرف بمسجد أبي المجد بن سمية فيه رجل يقال له حسن الزاهد، وهو واقف على السطح يتوب في المسجد، يصلي وعليه ثياب سود صوف - ونحن نراه ومالنا إليه سبيل وقد جاء الأفرنج فنزلوا على باب المسجد وصعدوا إليه ونحن نقول للاحول ولا قوة إلى بلله! الساعة يقتلوننه. فلا

والله ما قطع صلواته ولا زال من مكانه يصلي ولا نشك ان الله سبحانه أعماهم عنه وستره عن أبصارهم، فسبحان القادر الرحيم .

محسن يفك أسيرا

ومن أَلطاف الله تعالى ان ملك الروم لما نزل على شيزر في سنة اثنتين وثلاثين وخمسة مائة خرج من شيزر جماعة من الرجال للقتال فاقطعهم الروم فقتلوا بعضاً وأسروا بعضاً فكان في جملة من أسروا زاهد من بني كردوس من الصالحية من مولدي محمود بن صالح صاحب حلب. فلما عاد الروم كان معهم مأسورا فوصل القسطنطينية، فهو في بعض الأيام إذ لقيه إنسان فقال أنت ابن كردوس؟ قال نعم قال سر معي أوقفني على صاحبك فسار معه حتى أراه صاحبه. فقاوله على ثمنه حتى تقرر بينه وبين الرومي مبلغ أرضاه فوزن له الثمن وأعطى ابن كردوس نفقة وقال تبلغ بما أهلك وأمض في دعة الله تعالى. فخرج من قسطنطينية وتوصل إلى ان عاد شيزر وذلك من فرج الله تعالى وخفي لطفه، ولا يدري من الذي شراه واطلقه.

ملاك يعيث أسامة

وقد جرى لي ما يشبه ذلك لما خرج علينا الإفرنج في طريق مصر وقتلوا عباس بن أبي الفتوح وابنه نصرأ الكبير، الهزمن نحن إلى جبل قريب منا، فصعد الناس فيه رجالة يمشون يجرون خيلهم وأنا على أكديش ولا أستطيع المشي فصعدت وأنا راكب وسفوح ذلك الجبل كلها نقارة وحصى كلما وطئه الفرس انهز تحت قوائمه، فضربت الأكديش ليطلع فما استطاع، تنزل والحصاة والنقارة تنزل به، فترجل عنه وأقمته ووقفت لا أقدر على المشي، فنزل إلي رجل من الجبل ومسك يدي وبرزوني في يدي الأخرى حتى أطلعني، ولا والله ما أدري من هو ولا عدت رأيته. وقد كان في ذلك الوقت الصعب يمتن فيه بيسير الإحسان ويطلب المكافأة عنه ولقد شربت من بعض الأتراك شربة ماء أعطيته عنها دينارين، وما زال بعد وصولنا دمشق يقتضي حوائجه ويتوصل بي إلى أغراضه لأجل تلك الشربة التي ساقنيها، وما كان ذلك الذي أعاني إلا ملاكاً رحمني الله تعالى فأغاثني به .

من يقاتل في سبيل الله

ومن الناس من يقاتل كما كان الصحابة رضوان الله عليهم يقاتلون للجنة لا لرغبة ولا لسمعة ومن ذلك أن ملك الأمان الإفرنجي لعنه الله لما وصل الشام اجتمع إليه كل من بالشام من الإفرنج وقصد دمشق، فخرج عسكر دمشق وأهلها لقتاهم وفي جملة الفقهاء الفندلاوي والشيخ الزاهد عبد الرحمن الحلحولي رحمهما الله، وكان من خيار المسلمين. فلما قاربوهم قال الفقيه لعبد الرحمن هؤلاء الروم، قال بلى قال لي متى نحن وقوف؟ قال سر على أسم الله تعالى. فبقدمنا قاتلا حتى قتلا رحمهما الله في مكان واحد.

يقاتل لرد الجميل

ومن الناس من يقاتل للوفاء فمن ذلك رجلاً من الأكراد يقال له فارس وكان كاسمه فارس وأي فارس، فحضر أبي وعمي رحمهما الله وقعة كانت بينهما وبين سيف الدولة خلف بن ملاعب. عمل عليهم فيها وغدر بهم، وقد حشد وجمع وهم غير متأهبين لما جرى، وسبب ذلك انه راسلهم وقالمضي إلى أسفونا وفيها الفرنج نأخذها. فسبقه أصحابنا إليها وترجلوا وزحفوا

إلى الحصن نقبوهم وهم في القتال وابن ملاعب وصل، فأخذ خيل من كان ترجل من أصحابنا ووقع القتال بينهم بعدما كان للإفرنج واشتد بينهم القتال. فقاتل فارس الكردي قتلاً عظيماً وجرح عدة جراح، وما زال يقاتل ويجرح حتى اثنخن بالجراح وانفصل القتال، فاجتاز أبي وعمي رحمهما الله وهو محمول بين الرجال فوقفا عليه وهناه بالسلامة فقالواالله ما قتلت أريد السلامة لكن لكم علي جميل وفضل كثير، وما رأيتمكم في شدة مثل هذا اليوم فقلناقاتل بين أيديكم وأجازيكم عن جميلكم وأقتل قدامك. وقضى سبحانه وتعالى أن عوفي من تلك الجراح ومضى إلى جبله وفيها فخر الملك بن عمار وفي الاذقية الإفرنج، فخرجت خيل من جبلة تريد الغارة على الاذقية، وخرجت خيل من الاذقية تريد الغارة على جبلة، فنزل الفريقان في الطريق وبينهما رابية. فطلع فارس من الإفرنج من جانبهم يكشف الرابية وطلع فارس كردي من الجانب الآخر يكشف لأصحابه. فألتقى الفارسان على متن الرابية وكل واحد منهما على صاحبه فاختلفا طعنتين فوقعاً ميتين وبقيت الحصون تتواصل على الرابية والفارسان قتيلان. وكان لفارس هذا عندنا ولد علان من الجند له خيل الملاح والعدة الحسنة، ولكن ما كان كأبيه. فنزل علينا دنكري صاحب إنطاكية يوماً وقاتلنا قبل ضرب الخيام، وهذا علان بن فارس على حصان مليح باغر من لأحسن الخيل وهو واقف على رفعة من الأرض، فحمل عليه فارس من الإفرنج وهو كالعافل فطعن حصانه في رقبته ونفذ القنطارية، فشب الحصان ورمى علان وعاد الإفرنجي والحصان معارضه والقنطارية في رقبته كأنه تجنبه، يتمختر بغنيمة حسنة .

الخيل الصبورة والضعيفة

وعلى ذكر الخيل ففيها الصبور كالرجال وفيها الخوار، فمن ذلك انه كان في جندنا رجل كردي يقال له كامل المشطوب في الشجاعة والدين والخير رحمه الله وحصانه أدهم أصم مثل الجمل، فألتقى هو وفارس من الإفرنج فطعن الإفرنجي حصانه في موضع القلادة فمالت رقبته من شدة الطعن وخرجت القنطارية من أصل رقبة الحصان فضربت فخذ كامل المشطوب وخرجت من الجانب الآخر، وما ترزع الحصان من تلك الطعنة ولا فارسه. وكنت أرى ذلك الجرح الذي في فخذة بعدما اندمل وختم وهو كأكبر ما يكون من الجراح، وسلم الحصان وعاد حضر عليه القتال. فألتقى هو وفارس من الإفرنج فطعن الحصان في جبهته خسفها ولم يتزعزع، وسلم من تلك الطعنة الثانية فكانت بع ان ختمت إذا اطبق الإنسان كفه وأدخلها في جبهة الحصان في موضع الجرح وسعها. وكان من طريف ما جرى في ذلك الحصان أن أخي عز الدولة أبا

الحسن علياً رحمه الله اشتراه من كامل المشطوب، وكان ثقيل العدو فأخرجه في ضمان قرية كانت بيننا وبين فارس من إفرنج كفر طاب، فبقي عنده سنة ثم عاد مات فأرسل إلينا يطلب ثمنه قلنا اشتريته وركبته ومات عندك، كيف تطلب ثمنه؟ قالانتم سقيتموه شيئاً يموت منه بعد سنة. فعجبنا من جهله وسخافة عقله. وجرح تحتي حصان عل حمص شقت الطعنة قلبه وأصابه عدة سهام، فأخرجني من المعركة ومنخراه يدميان بالدم كالغزلتين، وما أنكرت منه شيئاً وبعد وصولي إلا أصحابي مات. وجرح تحتي حصان في بلدة شيزر في حرب محمود بن قراجا ثلاثة جراح وأنا أقاتل عليه ولا أعلم، وله أنه قد جرح، لاني ما انكرت منه شيئاً. وأما خورها وضعفها على الجراح فإن عسكر دمشق نزل على حماة وهي لصالح الدين محمد بن أيوب الغسياني ودمشق لشهاب الدين محمود بن بوري بن طغديكين وأنا بما، زحفوا إلينا في جمع كثير، ووالي حماة شهاب الدين أحمد بن صلاح الدين وهو على تل مجاهد، فجاءه الحاجب غازي التلي فقال قد انتشرت الرجالة والخوذ تتلامع بين الخيام، والساعة يحملون على الناس يهلكونهم فقالوا مضي ردهم فقالوا الله ما يردهم إلا أنت أو فلان يعني فقال ليتخرج تردهم فقلتردية كانت على الغلام لي لبستها وخرجت ردت الناس بالدبوس وتحتي حصاناً أشقر من أجود الخيل واتلعها، فلما رددت الناس زحفوا إلينا، وما يرى من سور حماة فارس غير يمنهم من دخل المدينة وايقنوا أنهم مأخوذون، ومنهم من هو مترجل في ركابي، فإذا حملوا علينا أخرجت الحصان بعنانه وأنا مستقبلهم، وإذا عادوا مشيت خلفهم سترة لضيق الخيل وازدحام الناس، فضربت حصاني نشابة في ساقه حمشته فوق بي وقام ووقع وأنا أضربه حتى قال لي الرجال الذين في ركابي ادخل إلى البشورة إركب غيره فقلتوا الله ما أنزل نه فرأيت من ضعف ذلك الحصان ما لم أراه من غيره. ومن حسن صبر الخيل طراد بن وهيب النمري حضر القتال بين بني نمير، وقد قتلوا علي بن شمس الدولة سالم بن مالك والي الرقة وملوكها والحرب بينهم وبين أخيه شهاب الدين مالك بن شمس الدولة وتحته طراد بن وهيب حصان له من أجود الخيل له قيمة كبيرة قطع في خاصرته فخرجت مصارينه، فشدها طراد السموط لا يدوسها فيقطعها، وقاتل حتى انقضى القتال، فدخل به إلى الرقة فمات .

استعداد دائم للقتال

قلت اذكركني ذكر الخيل بأمر جرى لي مع صلاح الدين محمد بن أيوب الغسياني رحمه الله نزل إلى دمشق في سنة ثلاثين وخمس مائة بأرض داريا. وقد راسله صاحب بعلبك جمال الدين محمد ابن بوري بن طغديكين رحمه الله في الوصول إليه، وخرج من بعلبك متوجه إلى خدمت أتابك، فبلغه ان عسكر دمشق خرج يريد أخذه. فأمر صلاح الدين ان نركب للقاءه ودفع الدمشقيين عنه. فجاءني رسوله يقول اركب وخيمتي إلى جانب خيمته، وهو قد ركب ووقف عند خيمته، فركبت في الوقت فقال كنت قد علمت بركوبي. قتلنا والله. قال لساعة نفذت إليك فركبت في الوقت. قلت يا مولاي حصاني شعيرة، ويلجمه الركابي ويقعد وهو في يده على باب الخيمة وأنا ألبس عدي وأتقلد سيفي وأنا م. فلا جاءني رسولك ما كان لي ما يعوقني فوقف إلى أن اجتمع عنده جماعة من العسكر وقال لبسوا سلاحكم وقد لبس أكثر الحاضرين وأنا إلى جانبه ثم

قالكم أقول ألبسوا سلاحكم، قلت يا مولاي لا تكون تعني. قال نعم قلت والله ما أقدر ألبس، نحن في أول الليل، وكراغندي فيه زرديتان مطبقة وإذا رأيت العدو لبسته. فسكت.

وسرنا فأصبحنا عند الضمير. فقال لي ما نزل نأكل شيئاً؟ فقد جعت من السهر. قلت الأمر لك. فنزلنا فما استقر على الأرض حتى قال أين كراغنديك؟ فأمرت الغلام فأحضره أسرجته من عيبته واسرجت السيكن فتقته عند صدره أظهرت جانب الزرديتين، وكان فيه زردية إفرنجية إلى ذيله وفوقها أخرى إلى وسطه على كل زردية البطائن واللبد واللاسين ووبر الأرنب. فالتفت إلى غلام له كلمه بالتركي ولا ادري ما يقول فأحضر بين يديه حصاناً كميئاً كان أطاعه إياه أتاك في تلد الأيام كالصخرة الصماء قدت من قنة الجبل. فقال هذا الحصان يصلح لهذا الكراغند، سلمه إلى الغلام فلان فسلمه إلى غلامي .

حضور الذهن

قلت كان عمي عزالدين رحمه الله يتفقد مني حضور فكري في القتال ويمنحني بالمسألة، فنحن يوماً في بعض الحرب التي كانت بيننا وبين صاحب حماة وقد حشد وجمع ووقف على ضيعة من ضياع شيزر يحرق وينهب. فجرد عمي من العسكر نحواً من ستين سبعين فارساً وقال لي خذهم وسر إليهم فمضينا نترامض والنقينا بوادر خيلهم فكسرناهم وطعنا فيهم وقلعناهم من موضعهم الذي كانوا عليه. ونفذت فارساً من أصحابي إلى عمي وأبي رحمهما الله وهما واقفان ومعهما باقي العسكر وراجل كثير أقول لهماسيرا بالرجالة فقد كسرهم. فسارا إلى فلما قربا حملنا عليهم كسرناهم، ورموا خيلهم في الشاروف وعبروه سباحة وهو زائد، ومضوا وعدنا بالنصر. فقال لي عمي أي شيء نفذت تقول لي؟ قلت مع رجب العبد. قال صدقت، ما أراك كنت إلا حاضر القلب، ما ادهشك القتال. ومرة أخرى اقتتلنا نحن وعسكر حماة، وكان محمود بن قراجا قد استعانا على قتلنا بعسكر أخيه خير خان بن قراجا صاحب حمص، وكان قد ظهر لهم في ذلك الزمان حمل الرماح المؤلفة بوصل الرمح إلى بعض رمح آخر بحيث يصير طوله عشرين ذراعاً أو ثمانية عشر ذراعاً. فوقف مقابلي موكب منهم وأنا في سرية نحو من خمس عشر فارساً فحمل علينا منهم علوان العراقي وهو من فرسانهم وشجعانهم. فلما دنا منا ما تزعزعا رجع ورد رمحه إلى خلفه، فرأيتنه كالحبل مطروحاً على الأرض لا يقدر يرفعه، فأطلقت حصاني عليه فطعنته وقد وصل إلى أصحابه، وعدت وراياهم على رأسي، فلقيهم أصحابي وفيهم أخي بهاء الدولة منقذ رحمه الله فردهم وقد انقطع نصف يريقي في كراغندة علوان ونحن بالقرب من عمي وهو يراني. فلما انفصل القتال قال لي عمي أي طعنت علوان العراقي قتلنا ردت ظهره، فمال الهواء بالبندق فوق الرمح في جانبه. قال صدقت. ما كنت إلا حاضر القلب ذلك الوقت.

مكافحة الأسود وسائر الصواري

حياة أسامة البينية

وما رأيت الوالد رحمه الله نماني عن قتال ولا راكبو خطر مما كان يرى في وأري من اشفاقه وايناره لي، ولقد رأيت يوماً وكان عندنا بشيزر رهائن عن بغدوين ملك الإفرنج على قطيعه قطعها لحسام الدين تمرناش بن إيغازي رحمه الله فرسان إفرنج وأرمن. فلما وفوا ما عليهم وأردوا الرجوع إلى بلادهم نفذ خيرخان صاحب حمص خيلاً كمنوا لهم في ظاهر شيزر. فلما توجه الرهائن خرجوا عليهم أخذوهم ووقع الصائح، فركب عمي وأبي رحمهما الله ووقفا وكل من يصل إليهما قد سيراه من خلفهم. واستخلصوا رهائناكم. فبعتهم وأدركتهم بعد ركض أكثر من النهار واستخلصت من كان معهم وأخذتهم بعض خيل حمص. وعجبت من قولهم نفوسكم عليهم. ومرة كنت معه رحمه الله وهو واقف في قاعة داره وإذا حية عظيمة قد أخرجت رأسها على إفريز رواق القناطر التي في الدار فوقف يبصرها، فحملت سلماً كان في جانب الدار أسندته تحت الحية وصعدت إليها، وهو يراني فلا ينهاني، وأخرجت سكيناً صغيرة من وسطي وطرحتها على رقبة الحية وهي نائمة وبين وجهي وبينها دون ذراع وجعلت أخرز رأسها - وخرجت الفت على يدي - إلى ان قطعت رأسها وألقيتها إلى الدار وهي ميتة. بل رأيت رحمه الله وقد خرجنا يوماً لقتال أسد ظهر على الجسر. فلما وصلناه حمل علينا من أجمة كان فيها، فحمل على الخيل ثم وقف وأنا وأخي بهاء الدولة منقذ رحمه الله بين الأسد وبين موكب فيه أبي وعمي رحمهما الله ومعهما جماعة من الجنود، والأسد قد ربض على حرف النهر يتضرب بصدرة على الأرض ويهدر فحملت عليه، فصاح علي أبي رحمه الله لا تستقبله يا مجنون فيأخذك! فطعنته، فلا والله ما تحرك من مكانه، فمات موضعه. فما رأيت ينهاني عن قتال منذ ذلك اليوم.

جرح سطحي

خلق الله عز وجل خلقه اطواراً مختلفين الخلق والطبائع الأبيض والأسود والحميل والقيح، والطويل والقصير، والقوي والضعيف، والشجاع والجبان، بمقتضى حكمته وعموم قدرته. رأيت بعض أولاد الأمراء التركمان الذين كانوا في خلعت ملك الأمراء أتاك زكي رحمه الله أصابته نشابة ما دخلت في جلده مقدار شعيرة فاسترخا وانحلت أعضائه وانقطع كلامه وغاب ذهنه وهو رجل مثل الأسد، أجسم ما يكون من الرجال، فاحضروا له الطبيب والجراح. فقال الطبيب والجراح. فقال الطبيب به بأس. بل متى جرح ثانية مات، فهدأ وركب وتصرف كما كان، ثم أصابته نشابة أخرى بعد مدة أحقر من الأولى وأقل نكابة، فمات.

طحان يموت من لسعة زنبور

ورأيت ما يقرب ذلك أيضاً كان عندنا بشيزر أخوان يقال لها بنو ماجوج لواحد اسمه أبو الجند ولآخر محاسن وهمت ضمان رحاة الجسر بثمان مائة دينار. وعند الرحا مذبج فيه جزاروا البلد ويجمع الزناير على أثار الدم. فاجتاز محاسن بن مجادو يوماً إلى الرحا فلسعه زنبور فانفلج وانقطع كلامه وأشرف على الموت، وبقي كذلك مدة، ثم أفاق وانقطع عن الرحا مدة فعاتبه أخوه أبو الجند وقال لها أخي معنا هذه الرحى بثمان مائة

دينار ولا تشرف عليها ولا تبصرها؟ وغداً ينكسر علينا ضمائها ونموت في الحبس. فقال له محاسنات مقصودك ان يلسعني زنبور آخر فيقتلني. واصبح جاء إلى الرحا فلسعه زنبور فمات. فأيسر الأشياء يقتل إذا فرغ الأجل، والفأل موكل بالمنطق.

حوادث الأسود

فمن ذلك انه ظهر عندنا بأرض شيزر سبع، فركبنا إليه فوجدنا غلاماً للأمير سابق بن وثاب بن محمود بن صالح في ذلك المكان يرعى فرسه اسمه شماس فقال له عميأين الأسود؟ قالفي تلك الغلفاء. قالسر قدماي إليها. قالأنت مقصودك ان يخرج الأسود يأخذني. ومشى قدامه. فخرج الأسود كأنه مرسل إلى شماس فأخذه فقتله دون الناس وقتل الأسود. وشاهدت من الأسود ما لم أكن لأظنه، ولا اعتقد ان الأسود كالناس فيها الشجاع وفيها الجبان. وذلك ان جوبان الخيل جاءنا يوماً كان يركض وقالفي أجمه تل التلول ثلاثة سباع. فركبنا فخرجنا إليها، وإذا لبوءة خلفها أسدان، فدرنا في تلك الأجمه، فخرجت علينا اللبوءة خلفها أسدان، فدرنا في تلك الأجمه، فخرجت علينا اللبوءة فحملت على الناس ووقفت فحمل عليها أخي بهاء الدولة أبو المغيث منقذ رحمه الله طعنها قتلها وتكسر رحمه فيها. ورجعنا إلى الأجمه فخرج علينا أحد السبعين فطرد الخيل، ووقفت أنا وأخي بهاء الدولة في طريقه عند عودته من طرد الخيل. فإن الأسود إذا خرج من موضع لا بد له من الرجوع إليه شبهة، وجعلنا إعجاز خيلنا إليه، ورددنا رماحنا نحوه ونحن نعتقد انه يقصدنا فنشب الرماح فيه فنقتله، فما راعنا إلى وهو عابر علينا كالريح إلى رجل من أصحابنا يقال له سعد الله الشيباني فضرب فرسه فرماها فطعنته وسطت القنطارية فيه فمات مكانه. ورجعنا إلى الأسود الآخر ومعنا نحو من عشرين راجلاً من الأرمن الأجياد رماة. فخرج السبع الآخر وهو أعظمها خلقة يمشي وعارضه الأرمن بالنشاب، وأنا معارض الأرمن انتظره يحمل عليهم يأخذ واحداً منهم فطعنه وهو يمشي. وكلما وقعت به نشابة قد هدر ولوح بذنبه فأقول الساعة يحمل ثم يعود يمضي. فما زال كذلك حتى وقع ميتاً، فرأيت من ذلك الأسود شيئاً ما ظننته. ثم شاهدت من الأسود أعجب من ذلك. كان بمدينة دمشق جرو أسد قد رباه سباع معه حتى كبر وصار يطلب الخيل وتأذى الناس به فقبل للأمير معين الدين رحمه الله وأنا عنده هذا السبع قد آذا الناس والخيل تنفر منه وهو في الطريق. وكان على مصطبة بالقرب من دار معين الدين رحمه الله في النهار والليل. فقالقولوا للسباع يجيء به. فقال للنخوان سلااخرج من ذبائح المطبخ خاروفاً إلى قاعة الدار حتى نبصر كيف يكسره السبع. فاخرج خاروفاً إلى قاعة الدار، ودخل السباع ومعه السبع. فساعة رآه الخروف، وقد أرسله السباع من السله التي في رقبته حمل عليه فطححه فأنهزم السبع وأخذ يدور حول البركة والخاروف خلفه يطرده وينطحه، ونحن قد غلبنا الضحك عليه. فقال الأمير معين الدين رحمه الله ذا السبع منحوس! أخرجوه اذبحوه واسلخوه وهاتوا جلده. فذبحوه وسلخوه وأعتق ذلك الخروف من الذبح.

ومن عجيب أمور السباع ان أسداً ظهر عندنا في أرض شيزر، فخرجنا إليه ومعنا رجالة من أهل شيزر فيهم غلاماً للمعبد الذي كان يطيعه أهل الجبل ويكاد يعبد. ومع ذلك الغلام كلب له. فخرج الأسود على الخيل

فجلت قدماه جافلة ودخل في الرجالة، فأخذ ذلك الغلام وبرك عليه، فوثب الكلب على ظهر الأسد فنفر عن الرجل وعاد إلى الأجمة. وخرج الرجل بين يدي والذي رحمه الله يضحك وقاليا مولاي ما جرحني ولا أذاني وقتلوا الأسد ودخل الرجل فمات تلك الليلة من غير جرح أصابه إلا اقطع قلبه. فكنت أعجب من إقدام ذلك الكلب على الأسد وكل حيوان ينفر من الأسد ويتجنبه. ولقد رأيت رأس الأسد يحمل إلى بعض دورنا فترى السنانير تقرب من تلك الدار وترمي نفوسها من السطوحات، وما رأيت الأسد قط، وكنا نسلخ الأسد ونرميه من الحصن إلى سفح الباشورة فلا يقربه الكلاب ولا شيء من الطير. وإذا رأيت القيقان اللحم نزلت إليه ثم دنت منه صاحت وطارت. وما أشبه هيت الأسد على الحيوان بمهية العقاب قط فيصبح وينهزم، هبة ألقها الله تعالى في قلوب الحيوان لهذين الحيوانين. وعلى ذكر السباع كان عندنا أخوان من أصحابنا يقال لهما بنو الرعام رجال يترادون من شيزر إلى الأذقية والأذقية لعمي عز الدولة أبي المهرف نصر، وفيها أخوه عز الدين أبو العساكر سلطان رحمهما الله. بالكتب بينهما قالاخرجتا مت الأذقية فأشرفنا من عقبة المنة وهي عقبة عالية تشرف على ما تحتها من الوطا، فرأينا السبع وهو رابط على النهر تحت العقبة، فوقفنا مكاننا ما نجسر على النزول من خوف الأسد، فرأينا رجلاً قد أقبل فصحننا إليه ولوحنا بشيابنا إليه نحذره من الأسد فما سمعنا، وأوتر قوسه وطرح فيه نشابة ومشى، فرآه الأسد فوثب إليه فضر بهما أخطاء قلبه فقتله، ومشى إليه فتمم قتله، وأخذ نشابته وجاء إلى ذلك النهر ونزع زربوله وقلع ثيابه ونزل اغتسل في الماء، ثم طلع لبس ثيابه ونحن نراه، وجعل ينفض شعره لينشفه من الماء، ثم لبس فردة زربوله واتكى على جنبه وطول في الاتكاء، فقلنا والله ما قصر، ولكن على من يتيه؟ ونزلنا إليه وهو على حاله فوجدناه ميتاً ما نلري ما أصابه، فنزعنا فردة الزربول من رجله وإذا فيه عقرب صغير قد لسعته في إبهامه فمات لوقته، فعجبنا من ذلك الجبار الذي قتل الأسد وقتلته عقرب مثل الإصبع، فسبحان الله القادر النافذ المشيئة في الخلق.

قلتقاتلت السباع في عدة مواقف لا احصيتها، وقتلت عدة منها ما شاركني في قتلها أحد سوى ما شاركني فيه غيري. فمن ذلك أن الأسد مثل سواه من البهائم يخاف ابن آدم ويهرب منه وفيه غفلة وبله ما لم يجرح فحينئذ هو الأسد، وذلك الوقت يخاف منه وإذا خرج من غاب أو جهة وحمل على الخيل فلا بدله من الرجوع إلى الأجمة التي خرج منها، ولو أن النيران في طريقه. وكنت أنا قد عرفت هذا بالتجربة، فمتى حمل على الخيل وقفت في طريق رجوعه قبل أن يجرح، فإذا رجع تركته إلى أن يتجاوزني وطعنته قبلته.

حوادث النمر

أما النمر فقتلها أصعب من قتال الأسد لحفتها وبعد ثباتها، وهي تدخل في الغارات والمخارج كما تدخل الضباع، والأسد ما تكون إلى في الغابات والآجام وقد كان ظهر عندنا نمر في قرية يقال لها معرزوف من أعمال شيزر. فركب إليه عمي عز الدين رحمه الله وأرسل إلي فارساً وأنا راكب في شغل لي يقول لأخوتي إلى معرزوف، فلحقته وجئنا إلى الموضع الذي زعموا أن النمر فيه، فما رأيته وكان هنا جب، فنزلت عن حصاني ومعني قطارية وجلست على فم الجب، وهو قصير نحو القامة وفي جانبه خرق كل حجر، فحركت

القنطارية في ذلك في ذلك الخرق الذي في الجب فخرج النمر برأسه من ذلك الخرق ليأخذ القنطارية فلما علمنا انه في ذلك الموضع نزل معي بعض أصحابنا، وصار بعضنا يحرك ذلك الموضع بالرمح حتى قتلناه، وكان حلقة عظيمة، إلا أنه كان أكل من دواب القرية حتى عجز عن نفسه، وهو دون سائر الحيوان يقفز إلى فوق أربعين ذراعاً.

وقد كان في كنيسة حناك طاقة في ارتفاع أربعين ذراعاً، فكان يأتيها نمر في الهاجرة يشب إليها ينام فيها إلى آخر النهار ويثب منها ينزل ويمضي ومقطع حناك ذلك الوقت فارس إفرنجي يقال له سير آدم من شياطين الإفرنج فأخبروه خبر النمري فقال إذا رأيتموه أعلموني. فجاء النمر كعادته وثب على تلك الطاقة. فجاء بعض الفلاحين أخبر السير آدم، فلبس درعه وركب حصانه، وأخذ ترسه ورمحه وجاء إلى الكنيسة وهي خراب، وإنما هي حائط قائم فيه تلك الطاقة. فلما رآه النمر وثب من الطاقة عليه وهو فوق حصانه، فكسر ظهره وقتله ومضى. فكان فلاحو حناك يسمونه النمر المجاهد.

ومن خواص النمر انه إذا جرح إنسان وبالت عليه فأر مات. ولا تردت الفأرة عن جريح النمر، حتى انه يعمل له سرير يجلس في الماء ويربط حوله السنانير خوفاً عليه من الفأر. والنمر لا يكاد يألف بالناس ولا يستأنس بهم. وقد كنت مرة مجتازاً بمدينة حيفا من الساحل وهي للإفرنج. فقال لي إفرنجي من مهمتشتري مني فهذاً جيداً؟ قلت نعم. فجاءني بنمر قد رباه حتى صار قد الكلب. قلت لا ما يصلح لي، هذا نمر ما هو فهذه، فعجبت من أنسه وتصرفه مع الإفرنجي. والفرق بين النمر والفهد ان وجه النمر طويل مثل وجه الكلب وعينه زرق والفهد وجهه مدور وعينه سود. وقد كان بعض الحلبيين أخذ نمرًا وجاء به في عدل إلى صاحب القدموس وهو لبعض بني محرز وهو يشرب، ففتح العدل فخرج النمر على من في المجلس. فأما الأمير فكان عند طاقة في البرج قد دخل منها وغلق عليه الباب. وجال النمر في البيت قتل بعضهم وجرح بعضهم إلى أن قتلوه. وسمعت وما رأيت في السباع البير وما كنت أصدق ذلك. فحدثني الشيخ الإمام حجة الدين أبو هاشم محمد بن محمد بن ظافر رحمه الله قالسافرت من المغرب ومعني غلام شيخ كان لوالدي سافر وجرب الأمور، ففرغ الماء الذي كان معنا وعطشنا وليس معنا ثالث، إنما نحن أنا وهو على نجيبين، فصدنا ماء في طريقنا فوجدنا عليه بير وهو نائم فاعتزلنا عنه. ونزل صاحبي عن جمله وأعطاني زمامه وأخذ سيفه وترسه وقربه معنا وقال ليأحتفظ برأس النجيب ومشي إلى الماء. فلما رآه البير قام ووثب مستقبله حتى تجاوزه، ثم صاح فتارت إليه مجريات له عدواً لحقوه. وما عارضنا ولا آذانا، فشربنا واسقينا ثم مضينا. هكذا حدثني رحمه الله وكان من خيار المسلمين في دينه وعلمه.

اختبارات حرية

ضرب شيزر بالمنجنيق

ومن عجيب الآجال لما نزل الروم إلى شيزر سنة اثنتين وثلاثين وخمسة مائة نصبوا عليها مجانيق هائلة جاءت معهم من بلادهم ترمي الثقل، وتبلغ حجرها ما لا تبلغه النشابة، وترمي الحجر عشرين وخمسة وعشرين رطلاً ولقد رموا مرة دار صاحب لي يقال له يوسف بن أبي الغريب رحمه الله بقلب فوق فهدمت علوها وسفلها بحجر واحد. وكان على برج في دار الأمير قنطارية فيها راية منصوبة، وطريق الناس في الحصن من تحتها، فضرب القنطارية حجر المنجنيق كسرها من نصفها، وانقلب كسرها الذي فيه السنان تنكس ووقع في الطريق، ورجل من أصحابنا عابر، فوقع السنان من تلك العلو وكان فيه نصف القنطارية في ترويقه خرج إلى الأرض وقتله. وحدثني خطلخ مملوك لوالدي رحمه الله قال كنا في حصار الروم جلوساً في دهليز الحصن بعددنا وسيفنا فجاءنا شيخ يعدوا وقالوا مسلمون الحرجم، دخل الروم معنا، فأخذنا سيوفنا وخرجنا وجدناهم قد طلعوا من ثغرة في السور ثغرماً المجانيق فضربناهم بالسيوف حتى أخرجناهم، وخرجنا خلفهم حتى أوصلناهم إلى أصحابهم وعدنا فنفرنا، وبقيت أنا وذلك الشيخ الذي إستفزعنا فوقف وأدار وجهه إلى الحائط يريق الماء فأعرضت عنه فسمعت وجبة فالنتفت وإذا الشيخ قد ضربت رأسه حجر المنجنيق كسرتة وألصقته بالحائط ومخه قد سال على الحائط فحملته وصلينا عليه ودفناه في مكانه رحمه الله. وضربت حجر المنجنيق رجلاً من أصحابنا رجله فحملوه بين يدي عمي وهو جالس في دهليز الحصن، فقاهاتوا الحجر وكان بشيزر رجل صانع يقال له يحيى صانع في التجبير، فحضر وجلس يجبر رجله وهو في سترة خارج باب الحصن، فضربت الرجل المكسور حجر في رأسه طيرته، فدخل الحجر إلى الدهليز فقال عميما أسرع ما جبرته إقاليا مولاي جاءتته حجر ثانية اغنته عن التجبير.

قصد الفرنج دمشق

ومن نفاذ المشيئة في الآجال والأعمار ان الإفرنج خذلهم الله، اجمع رأيهم على ان يقصدوا دمشق ويأخذوها، فاجتمع منهم خلق كثير وسار إليهم صاحب الرها وتل باشر وصاحب إنطاكية، فنزل صاحب إنطاكية على شيزر في طريقه إلى دمشق، وقد تبايعوا بينهم دور دمشق وحماتها وقياسيرها واشتراها البرجاسية ووزنوا لهم أثمانها، وما عندهم شك في فتحها وملكها. وكفر طاب إذ ذاك لصاحب إنطاكية، فجرد من عسكره مائة فارس انتخبهم وأمره بالمقام بكفر طاب مقابلنا ومقابل حماة فلما سار إلى دمشق اجتمع من بالشام من المسلمين لقصد كفرطاب وانفذوا رجلاً من أصحابنا يقال له قنيب بن مالك فجلس لهم كفرطاب في الليل فوصلوها دارها وعاد وقالوا بشروا بالغنيمة والسلامة. فسار المسلمون عليهم فالتقوا على مثكير، فنصر الله سبحانه الإسلام وقتلوا الإفرنج جميعهم. وكان قنيب الذي جس لهم كفرطاب قد رأى في خندقها دواب كثيرة. فلما ظفروا في الإفرنج وقتلوهم طمع في أخذ تلك الدواب التي في الخندق ورجا ان يأخذ الغنيمة وحده، فمضى يركض إلى الخندق فرمى عليه رجل من الإفرنج حجراً فقتله. وكانت له عندنا والدة عجوز كبيرة تندب في مآمتنا ثم تندب ولدها. فكانت إذا نذبت على ابنها قنيب تتدفق ثدياها بالبن حتى تغرق ثيابها، وإذا فرغت من الندب عليه وسكنت لوعتها عادات نذيتها كالجذبتين ما فيهما قطرة لبن، من أشرب القلوب الحنة على الأولاد. ولما قيل لصاحب إنطاكية وهو على دمشق فقد قتل المسلمون

أصحابك قالما هو صحيح، قد تركت بكفرطاب مائة فارس تلتقي المسلمين كلهم. وقضى الله سبحانه ان المسلمين بدمشق نصرروا على الإفرنج وقتلوا منهم مقتله عظيمة وأخذوا جميع دوابهم فرحلوا عن دمشق أسوأ رحيل وأذله - والحمد لله رب العالمين.

؟؟

كردي يتأبط رأس أخيه

ومن عجائب ما جرى في تلك الواقعة بالإفرنج انه كان في عسكر حماة أخوان كرديان اسم الواحد بدر وأسم الآخر عناز. وكان هذا عناز ضعيف النظر. فلما كسر الإفرنج قطعوا رأسهم وشدوهم في سموط خيلهم، وقطع عناز رأساً في سموطه، فرآه قوم من عسكر حماة فقالوا لهيا عناز أي شيء هذا الرأس معك؟ قال سبحانه الله لما يجري بيني وبينه حتى قتلته. قالوا له يا رجل هذا رأس أخيك بدر؟ فظفر وتأمله، فإذا هو رأس أخيه فأستحي من الناس وخرج من حماة، فما ندري اين قصد ولا عدنا نسمع له خبراً وكان أخوه قتل في تلك المعركة قتله الإفرنج، خذهم الله تعالى.

؟؟

ضربة سيف تشق رأس إسماعيلي

اذكري ضربة حجر المنجنيق رأس ذلك الشيخ رحمه الله ضرب السيف الماضية. فمن ذلك ان رجلاً من أصحابنا يقال له همام الحاج التقى هو ورجل من الإسماعيلية، لما عملوا على حصن شيزر بالرواق في دار عمي رحمه الله، في يد الإسماعيلي سكين والحاج في يده سيف، فهجم عليه الباطني بالسكين فضربه همام بالسيف فقطع قحف محنه على الأرض فأنبسط عليها وتطاير، فوضع همام السيف من يده وتقياً ما في بطنه لما لحقه من نظر ذلك المخ من الغثيان، ولقيني في ذلك اليوم واحد منهم في يده سيخ وفي يدي سيف لي، فهجم علي بالسيف فضربتته في وسط ساعده والسيخ بيده قبضته ونصله لاسق بساعده فقطع قدر أربع أصابع من نصل السيخ وقطع الساعد من نصفه فأبانه، وبقي أثر فم السيخ في حد السيخ، فرآه صانع عندنا فقالاًنا أخرج هذا الثلم منه. فلتدعه كما هو فهو أحسن ما فيه، وهو إلى الآن إذا راه إنسان علم انه أثر سكين. ولهذا السيف خبر أنا ذاكره.

تقطع وأخرى نعللاً ومرققاً

كان للوالد ركابي يقال له جامع فأغار الفرنج علينا، فلبس الوالد كراغنده وخرج من داره ليركب، فما وجد حصانه فوقف ساعة ينتظره، فوصل جامع الكابي بالحصان وقد أبطأ، فضربه الوالد بهذا السيف وهو في غمده متقلد به، فقطع الجهاز والنعل الفضة وبشتا كان على الركابي وصوفية وعظم مرفقه فرميت يده، فكان رحمه الله يقوم به بأولاده بعد تلك الضربة، وكان السيخ يسمى الجامعي بأسم الركابي.

؟

ضربتان تقتل رجلين

ومن ضربتا السيف المذكورة ان أربعة اخوة من أنساب الأمير افتخار الدولة أبي الفتوح بن عمرو بن صاحب حصن أبو قيس صعدوا إليه إلى الحصن وهو نائم وأوثقوه بالجراح، وما معه بالحصن غير ابنه، ثم خرجوا وهم يظنون أنهم قتلوه يريدون ابنه، وكان هذا افتخار أعطاه الله من القوة أمراً عظيماً، فقام من فراشه عرياناً وسيفه معلق في بيته معه فأخذه وخرج إليهم فلقبه واحد منهم وهو مقدمهم وشجاعهم، فضربه افتخار الدولة في السيف وقفز من مقابله خوفاً من أن يصله بسكين كانت في يده، ثم التفت إليه فوجده ملقى فقد قتله بتلك الضربة، وصار إلى الآخر ضربه قتله، وانهمز الاثني الباقيان فرميا أنفسهما من الحصن فمات أحدهما ونجا الآخر.

واتانا الخبر إلى شيزر فأنفذنا من هنأه بالسلامة، وطلعنا بعد ثلاثة أيا إلى حصن أبو قيس لعيادته، فإن أخته كانت عند عمي عز الدين وله منها أولاد. فحدثنا حديثه وكيف كان أمره. ثم قال متن كنفني يكفني وما أصل إليه. ودعا غلاماً له ليصير ذلك الموضع أي شيء قرصه فيه. فنظر فإذا هو جرح وفيه رأس دشن قد انكسر بظهره، وما معه به علم ولا أحس به، فلما قاح أحكه. وكان من قوة هذا الرجل انه كان يمسك رسغ رجل البغل ويضرب البغل فلا يقدر يخلص رجله من يده، ويأخذ مسمار البيطارى بين أصابعه وينفذ في دق خشب البلوط، وكان آكله مثل قوته بل أعظم.

بطولة النساء

قد ذكرت شيئاً من أفعال الرجال وسأذكر شيئاً من أفعال النساء بعد بساط اقدامه .

بالدون يعقب روجر في إنطاكية

وذلك أن إنطاكية كانت لشيطان من الإفرنج يقال له روجار، فمضى يحج إلى بيت المقدس، وصاحب البيت المقدس بغدوين البرونس وهو رجل شيخ، وروجار شاب فقال لبغدوينيا جعل بيني وبينك شرطاً إن مت قبلك كانت إنطاكية لك وإن مت قبلي كان بيت المقدس لي. فتناقدا وتواتقا على ذلك. وقدر الله تعالى أن نجم الدين إيلغازي بن أرتق رحمه الله، لقي روجار بدانيث يوم الخميس الخامس من جمادى الأولى سنة ثلاثة عشر وخمسائة فقتله وقتل جميع عسكره، ولم يدخل إنطاكية منهم دون العشرين رجلاً وسار بغدوين إلى إنطاكية فتسلمها. وضرب مع نجم الدين مصافاً بعد أربعين يوماً. وكان إيلغازي إذا شرب النبيذ يخمر عشرين يوماً، فشرب بعد كسر الفرنج وقتلهم دخل في الخمار فما أفاق حتى وصل الملك بغدوين البرنس إلى إنطاكية بعسكره.

طغدكين يقطع رأس روبرت

فكان المصاف الثاني بينهما على السواء كسر بعض الفرنج بعض المسلمين وكسر بعض المسلمين بعض الفرنج، وقتل من هؤلاء وهؤلاء جماعة. واسر المسلمين روبرت صاحب صهيون وبلاطس وتلك الناحية، وكان صديقاً لأتابك طغدين صاحب دمشق ذلك الوقت، وكان مع نجم الدين إيلغازي لما أجمع بالإفرنج في افاميا عندما وصل عساكر الشرق مع برسق بن برسق فقال هذا روبرت الأبرص لأتابك طغدينما أدري بأي شيء أضيفك، ولكن قد أبحك بلادي، أنفذ خيلك تغير عليها وتأخذ كلما وجدوه، بلى لا يسوا ولا يقتلوا، الدواب والمال والغلة لهم يأخذون ذلك مباحاً لهم. فلما أسر روبرت وأتابك طغدين حاضر المصاف في معونة إيلغازي، قطع روبرت على نفسه عشرة آلاف دينار، فقال إيلغازي أمضوا به إلى أتابك لعله يفزعه فيزيدنا بالقطيعة. فمضوا به وأتابك في خيمته يشرب. فلما رآه مقابلاً قام شمر أذبال قبائه في البند وأخذ سيفه وخرج إليه وضرب رقبتة، فنفذ إليه إيلغازي يعتب عليه وقال نحن محتاجون لدينار واحد للتركمان، وهذا كان قد قطع على نفسه عشرة آلاف دينار نفذته إليك تفزعه لعله يزيدنا في القطيعة قتلته! قالنا ما أحسن أفرع إلا كذا.

بالدون يسامح عم أسامة بقطيعة

ثم ملك بغدوين البرونس إنطاكية، وكان لأبي وعمي رحمهما الله، جميل كبير حيث كان أسره نور الدولة بلك رحمه الله، وصار بعد قتل بلك إلى حسام الدين تمرتاش بن إيلغازي فحملة إلينا إلى شيزر ليتوسط أبي وعمي رحمهما الله بيعه فاحسنا إليه. فلما ملك كانت لصاحب إنطاكية علينا قطيعة سأمنا بها صار أمرنا في إنطاكية نافذاً

ويتنازل عن إنطاكية لأبن ميمون

فهو فيما فيه وعنده رسول من أصحابنا إذ وصل مركب إلى السويدية فيه صبي عليه أخلاق، فحضر عنده وعرفه ابن ميمون فسلم إنطاكية إليه وخرج إليها وضرب خيمة في ظهرها، فحلف لنا رسولنا الذي كان عنده انه يعني الملك بغدوين أشتري عليك خيله تلك الليلة من السوق، واهراء إنطاكية ملامى من الغلة، ورجع بغدوين إلى القدس.

ابن ميمون يهاجم شيزر

وخرج من ذلك الشيطان ابن ميمون بلية عظيمة فنزل علينا يوماً من الأيام بعسكره فضرب خيامه، ونحن قد ركبنا مقابلهم، فما خرج منهم أحد ونزلوا في خيامهم، ونحن ركاب على شرف نصرهم، وبيننا وبينهم العاصي فنزل من بيننا ابن عمي ليث الدولة يحيى بن مالك بن حميد رحمه الله يسير إلى العاصي ظنناه يسقي فرسه، فخاض الماء وعبر وسار نحو موكب الإفرنج واقف بالقرب من خيامهم. فلما دن منهم نزل إليه فارس واحد، فحمل كل واحد منهما على صاحبه، وراغ كل واحد منهما عن طعنه الآخر فتسرعنا أنا وأمثالي

من الشباب في ذلك الوقت إليهم، ونزل ذلك الموكب وركب ابن ميمون وعسكره وجاتوا كالسيل وصاحبنا قد طعت فرسه، فالقت أوائل خيلنا وأوائل خيلهم، وفي أجنادنا رجل كردي يقال له ميكائيل وقد جاء في أوائل خيلهم منهزماً وخلفه فارس إفرنجي قد لزه. وللكردي بين يديه ضجيج وصياح عال فلقيته، فمال عن ذلك الكردي وزل عن طريقي وقصد خيل لنا في جماعة على الماء واقفين مما يلينا، وأنا خلفه أجهد أن يلحقه حصاني فأطعنه فلا يلحقه، ولا الإفرنجي يلغث إلي إلا يريد تلك الخيل المجتمعمة إلى أن وصل إلى خيلنا وأنا تابعه، فطعن أصحابي حصانه طعنة أوثقتته وأصحابه في أثره في جمع ما لنا بهم قوة. فرجع الفارس وحصانه في آخر رمقه فردهم جميعهم وعاد وهم معه. وكان الفارس ابن ميمون صاحب إنطاكية وهو صبي قد امتلأ قلبه من الرعب، ولو ترك أصحابه هزمونا إلى أن يدخلونا المدينة.

قصة بريكة

كل ذلك وأمة عجوز يقال لها بريكة مملوكة لرجل كردي من أصحابنا يقال له علي بن محبوب واقفه بين الخيل على شط النهر وفي يدها شربة تسقي بها وتسقي الناس، وأكثر أصحابنا الذين كانوا على الشرف لما رأوا الإفرنج مقلبين في ذلك الجمع إندفعوا نحو المدينة وتلك الشيطانه واقفة لا يرونها ذلك الأمر العظيم. وأنا ذاكر شيئاً من أمر هذه بريكة، وإن لم يكن موضعه، لكن الحديث شجون. كان مولاه علي يشدين ولا يشرب الخمر. فقال لوالدي يوماً والله يا أمير لا أستحل ما آكل من الديوان وما آكل من كسب بريكة، وهو الجاهل يظن ان ذلك السحت الحرام أحل من الديوان الذي هو مستأجر به. وكانت هذه الأمه لها ولد اسمه نصر رجل كبير وكيلاً في ضيعة للوالد رحمه الله وهو رجل يقال له بقية بن الأصيفر. حدثني قالدخلت في الليل البلد أريد الدخول إلى داري في شغل لي. فلما دنوت من البلد بين المقابر في ضوء القمر شخصاً ما هو آدمي ولا هو وحش فوقفت عليه وهيبته. ثم قلت في نفسي ما أنا ببقية! ما هذا الخوف من واحد؟ فوضعت سيفي ودروفتي والحربة التي معي ومشيت قليلاً قليلاً وأنا أسمع لذلك الشخص زجلاً وصوتاً فلما قربت منه وثبت عليه وفي يدي دشني فقبضته، وإذا بها بريكة مكشوفة الرأسى وقد نفشت شعرها وهي راكبة قصبه تصهل بين المقابر وتجول. قلتويحك أي شيء تعملين في هذا الوقت ها هنا؟ قالتأسحر قلتقبحك الله وقبح سحرك وصنعتك من بين الصنائع!

امرأة تقاتل في شيزر

اذكرني قوة نفس هذه الكلبة بأمر جرت للنساء في الواقعة التي كانت بيننا وبين الأسماعيلية، وإن لم تكن سواء. لقي في ذلك اليوم مقدم القوم علوان ابن حرار ابن عمي سنان الدولة شيب ابن حامد بن حميد رحمه الله في الحصن وهو تروى فيه. ولدت أنا وهو في يوم واحد السابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة ثمانية وثمانين وأربع مائة إلا انه ما باشر الحرب ذلك اليوم وأنا كنت قطبها. فأراد علوان اصطناعها. فقال لها رجوع إلى بيتك احمل منه ما تقدر عليه وروح لا تقتل، فالحصن قد ملكناه. فرجع إلى الدار وقالمن كان له شيئاً

يعطيني إياه يقول ذلك لعتمته ونساء عمه، فكل منهم أعطاه شيئاً، فهو في ذلك إذاً إنسان وقد دخل الدار عليه زردية وخوذة ومعه سيف وترس. فلما رآه يقن بالمت، فوضع الخوذة وإذا هي ابن عمه ليث الدولة يجيى رحمه الله. فقالتأي شيئاً تريد تعمل؟ قالأخذ ما قدرت عليه، وانزل من الحصن بجبل وأعيش بالدنيا. قالتبس ما تفعل، تخلي بنات عمك وأهلك للحلاجين وتروح؟أي عيش يكون عيشك إذا افتضحت في أهلك انهزمت عنهم؟ أخرج قاتل عن أهلك حتى تقتل بينهم، فعل الله بك وفعل. ونعته رحمه الله من الهرب، وكان من الفرسان المعدودين بعد ذلك .

والدة أسامة في القتال

وفي ذلك اليوم فرقت والدتي رحمه الله سيوفي وكزاعنداتي، وجاءت إلى أخت لي كبيرة في السن وقالتلبي خلفك وإزارك. فلبست وأخذتها إلى روشن في داري يشرف على الوادي من الشرق أجلستها عليه وجلست إلى باب الروشن، ونصرنا الله سبحانه عليهم. وجاءت إلى داري أطلب شيئاً من سلاحي ما وجدت إلى جهازات السيوف وعيب الكزاعندات. قلتيا أمي أين سلاحي؟ قالتيا بني أعطيت السلاح لمن يقاتل عن، وما ظننتك سالماً قتلوأختي أي شيء تعمل هاهنا؟ قالتيا بني أجلستها على الروشن وجلست براً منها. إذا رأيت الباطنية وصلوا إلينا دفععتها رميتها إلى الوادي فأراها قد ماتت ولا أراها مع الفلاحين والحلاجين مأسورة. فشكرتها على ذلك وشكرتها الأخت وجزتها خيراً، فهذه النخوة أشد من نخوات الرجال.

عجوز تضرب بالسيف

وتلثمت في ذلك اليوم عجوز من جواري جدي الأمير أبي الحسن علي رحمه الله يقال لها فتون فأخذت سيفاً وخرجت إلى القتال وما زالت كذلك حتى صعدا وتكاثرنا عليهم. وما ينكر للنساء الكرام الأنفة والنخوة والإصابة في الرأي .

جدة أسامة تنصحه

ولقد خرجت يوماً من الأيام مع الوالد رحمه الله إلى الصيد، وكان مشغولاً بالصيد عنده من البراة والشواهين والصقور والفهود والكلاب الزغارية ما لا يكاد يجتمع عند غيره، ويركب في أربعين فارساً من أولاده ومماليكه كل منهم خبير بالصيد عارف بالتقنص، وله بشير مصيدانيوماً يركب إلى غربي البلد إلى أزوار وأهوار فيتصيد الدراج والطير الماء والأرنب والغزلان ويقتل الخنازير، وبمأ يركب إلى الجبل قبلي البلد يتصيد الحجل والأرنب. فحن في الجبل يوماً وقد حانت صلاة العصر فنزل ونزلنا نصلي فرادى، وإذا غلام قد جاء يركض قاهذا الأسد! فسلمت قبل الوالد رحمه الله لكيلا يمنعني من قتال الأسد وركبت ومعني رمحي فحملت عليه فأستقبلي وهدر، فحاص بي الحصان ووقع الرمح من يدي لثقله وطردني شوطاً جيداً، ثم رجع

إلى سفح الجبل ووقف عليه وهو من أعظم السباع كأنه قطرة جائع وكلما دنون منه نزل من الجبل، طرد الخيل وعاد إلى مكانه، وما ينزل نزلة إلا يؤثر في أصحابنا.

ولقد رأيته راكباً مع رجل من غلامان عمي يقال له بستكين غرزة على وركي حصانه وخرق بمخالبه ثيابه ورائته وعاد إلى الجبل، فما كان لي فيه حيلة إلا أن صعدت فوقه في سفح الجبل. ثم حدرت حصاني عليه فطعنته فنفذت الرمح فيه وتركته في جانبه، فتنقلب إلى أسفل الجبل والرمح فيه، فمات الأسد وانكسر الرمح، والوالد رحمه الله واقف يرانا معه أولاد أخيه عز الدين يبصرون ما يجري وهم صبيان. وحملنا الأسد ودخلنا البلد العشاء، وإذا جدي لأبي رحمها الله جاءني في الليل وفي يدها شمعة - وهي عجوز كبيرة قاربت من العمر مائة سنة. فما شككت أنها قد جاءت تهمني بالسلامة وتعرفني مسرهما بما فعلت. فلقيتها وقبلت يدها فقاتلني بغیظ وغضبياً بني أيش يملك على هذه المصائب التي تخاطر فيها بنفسك وحصانك وتكسر سلاحك ويزداد قلب عمك منك وحشة ونفوراً.؟قلنا ستي أما أخطر بنفسي في هذا ومثله لأتقرب إلى قلب عمي. قائلنا والله ما يقربك هذا منه وانه يزيدك منه بعداً ويزيده منك وحشاً ونفوراً. فعلمت أنها نصحتني في قولها وصدقني، ولعمري إنهن أمهات رجال.

ولقد كانت هذه العجوز رحمها الله من صالحى المسلمين من الدين والدقة والصوم والصلاة على أجمل طريقة، ولقد حضرتهما ليلة النصف من شعبان وهي تصلي عند والدي، وكان رحمه الله من أحسن من يتلو كتاب الله تعالى، ووالدته تصلي بصلاته، فأشفق عليها فقاليا أُمي لو جلست صليت من قعودة. قائلنا بني بقي لي من العمر ما أعيش إلى ليلة مثل هذه الليلة؟ لا والله ما أجلس، وكان الوالد قد بلغ السبعين سنة وهي قد شارفت المائة سنة رحمها الله.

مسلمة تقتل زوجها

وشاهدت من نخوات النساء عجياً. وهو أن رجلاً من أصحاب خلف بن ملاعب يقال له علي عبد بن أبي الريداء كان قدر رزقه الله تعالى من النظر ما رزق زرقاء اليمامة، فكان ينهض مع ابن ملاعب يبصر القوافل على المسيرة يوم كامل. ولقد حدثني رجل من رفاقه يقال له سالم العجزي انتقل إلى خدمة والدي بعد ما قتل خلف بن ملاعب قالنهضنا يوماً وأرسلنا علياً عبد ابن أبي الريداء بكرة يديب لنا، فجاءنا وقالوا بشروا بالغنيمة! هذه قافلة كثيرة مقبلة. فظننا ما رأينا شيئاً، فقلنا ما نرى قافلة ولا غيرها. قالوا لله، إني لأرى قافلة وقدامها فرسان معينان ينفضان معارفهما. فأقمنا في الكمين إلى العصر فوصلتنا القافلة والفرسان المعينان قدامها فخرجنا أخذنا القافلة. وحدثني سالم العجزي فقالنهضنا يوماً وصعد علي عبد ابن أبي الريداء يديب لنا، فنام وما درى إلا وقد أخذه تركي من سرية أتراك ناهضة وقالوا أي شيء أنت؟ قال أنا رجل صعلوك قد أركيت جملي لرجل من التجار في القافلة، أعطني يدك أنك تعطيني جملي حتى أدلك على القافلة. فأعطاه مقدمة يده، فمشى بين أيديهم إلى أن أوصلهم إلينا إلى الكمين، فخرجنا عليهم أخذناهم، وتعلق هو في الذي كان بين يديه أخذ فرسه وعدته، وغنمنا منهم غنيماً حسنة. فلما قتل ابن ملاعب انتقل علي ابن أبي

الريداء إلى خدمت توفيل الإفرنجي صاحب كفرطاب، فكان ينهض بالإفرنج إلى المسلمين يغنمهم ويبالغ في أذى المسلمين وأخذ ما لهم وسفك دمهم حتى قطع سبل المسافرين، وله امرأة معه في كفر طاب تحت يدي الإفرنج تنكر عليه فعله وتناه فلا ينتهي. فنفذت أحضرت نسيب لها من بعض الضياع وأظنه أخاها، وأخفته في البيت إلى الليل. واجتمعت هي وهو على زوجها علي ابن أبي الريداء قتلاه واحتملاه يجمع ما لها. وأصبحت عنا في شيزر وقالته غضبت للمسلمين لما كان يفعل بهم هذا الكافر. فأرحت الناس من هذا الشيطان، ورعينا لها ما فعلت وكانت عندنا في الكرامة والاحترام.

إفرنجية تجرح مسلماً

وكان في أمراء مصر رجل يقال له ندى الصليحي في وجهه ضربتان الواحة من حاجبه الأيمن إلى حد شعر رأسه والأخرى من حاجبه الأيسر إلى حد شعر رأسه. فسألته عنهما فقال كنت انهض وأنا شاب من عسقلان وأنا راجل، فنهضت يوماً في طريق بيت المقدس أريد حجج الإفرنج، فصادفنا قوماً منهم فلقيت رجلاً معه قنطارية وخلفه امرأته معها كوز خشب فيه ماء. فطعني الرجل هذه الطعنة الواحدة وضربته قتلته، فمشت إلي امرأته وضربتني بالكوز الخشب في وجهي، جرحني هذا الجرح الآخر فوسما وجهي .

شيزرية تأسر ثلاثة إفرنج

ومن إقدام النساء ان جماعة من الإفرنج الحجاج حجوا وعادوا إلى رفنية، وكانت ذلك الوقت لهم، وخرجوا منها يريدون أفامية، فتأهوا في الليل وجأوا شيزر وهي إذ ذك بغير سور، ودخلوا المدينة وهم في نحو سبع مائة ثمان مائة من رجال ونساء وصبيان. وكان عسكر شيزر قد خرجوا مع عمي عز الدين أبي العساكر سلطان وفخر الدين أبي كامل شافع رحمهما الله ليلقيا عروسين قد تزوجاهما من بني الصوفي الحلبيين أختين. ووالدي رحمه الله في الحصن. فخرج رجل من المدينة في شغل له في الليل فرأى إفرنجياً، وعاد أخذ سيفه وخرج قتلته، ووقع الصياح في البلد، وخرج الناس فقتلوهم وغنموا ما كان معهم من النساء والصبيان والفضة والبهائم. وفي شيزر امرأة من نساء أصحابنا يقال لها نصره بنت بوز رماط خرجت مع الناس أخذت إفرنجي أدخلته بيتها، وخرجت أخذت آخر أدخلته بيتها، وعادت خرجت أخذت آخر. فاجتمع عندها ثلاثة من الإفرنج، فأخذت ما كان معهم وما صلح لها من سلبهم وخرجت، دعت قوماً من جيرانها قتلوهم. ووصل عمي والعسكر في الليل، وقد كان انهزم من الإفرنج ناس وتبعهم رجال من شيزر فقتلوهم في ظاهر البلد. فصارت الخيل تعثر في الليل في القتلى، ولا يدرون بماذا تعثر، حتى ترجل بعضهم وابصر القتلى في الظلام، فهالهم واعتقدوا ان البلد قد كبس .

إفرنجية تؤثر أن تكون زوجة اسكاف

كانت غنيمة ساقها الله عز وجل إلى الناس، فصار إلى دار والدي رحمه الله علة من جواري سييهم لعنهم الله، جنس ملعون لا يألون لغير جنسهم فرأى منهم جارية مليحة شابة فقال لقهريمانه دارها دخلي هذه الحمام وأصلي كسوتها واعلمي شغلها للسفر. ففعلت وسلمها إلى بعض خدامه وسيرها إلى الأمير شهاب الدين مالك بن سالم بن مالك صاحب قلعة جعبر وكان صديقه، وكتب إليه يقولغنمنا من الإفرنجي غنيمة قد نفذت لك سهماً منها. فوافقت وأعجبت فتحذها لنفسه، فولدت له ولداً سماه بدران الولد والرعية وأمه الآمرة الناهية. فواعدت قوماً وتدلت من القلعة بجبل ومضى بها أولئك إلى سروج، وهي إذ ذاك للإفرنج فتزوجت بإفرنجي اسكاف وابنها صاحب قلعة جعبر.

إفرنجي يتنصر بعد إسلامه

وكان في أولئك الذين صاروا إلى دار والدي امرأة عجوز ومعها بنت لها امرأة شابة حسنة الخلقة وابن مشتد، فأسلم الابن وحسن إسلامه فيما يرى من صلواته وصومه، وتعلم الترخيم من مرخم كان يرخم دار والدي. فلما طال مقامه زوجه الوالد امرأة من قوماً صالحين وقام له بكل ما احتاجه لعرسه وبيته فرزق منها ولدين وكبا وصار لكل واحد منهما خمس ست سنين، والغلام راؤول أبوهما مسرور بهما، فأخذهما وأمهما، وما في بيته واصبح في افامية عند الإفرنج وتنصر هو وأولاده بعد الإسلام والصلاة والدين. فالله تعالى يطهر الدنيا منهم .

طبائع الإفرنج وأخلاقهم

سبحان الخالق البارئ إذا خبر الأنسان أمور الإفرنج سبح الله تعالى وقده ورأى بهائم فيهم فضيلة الشجاعة والقتال ولا غير، كما في البهائم فضيلة القوة والحمل. وسأذكر شيئاً من أمورهم وعجائب عقولهم. كان في العسكر الملك فلك بن فلك فارس محتشم إفرنجي قد وصل من بلادهم يبحج ويعود، فأنس بي وصار ملازمني ويدعوني أخي وبيننا المودة والمعاشرة فلما عزم على التوجه في البحر إلى بلاده قال لييا أخي أي سائر إلى بلادي، وأريدك تنفذ معي أبني وكان ابني معي وهو ابن أربعة عشر سنة إلى بلادي يبصر الفرسان ويتعلم العقل والفروسية. وإذا رجع كان مثل الرجل عاقل. فطرق سمعي كلام ما يخرج من رأس عاقل. فإن أسر ما بلغ به الأسر أكثر من رواجه إلى بلاد الإفرنج. فقلنتوحياتك هذا الذي كان في نفسي. لكن منعني من ذلك ان جدته تحبه وما تركته يخرج معي حتى استحلقتني أن أردده إليها قالأملك تعيش؟ قلنتعم. قاللا تخالفها.

ومن عجيب طبهم ان صاحب المنيطرة كتب إلى عمي يطلب منه إنقاذ طيب يداوي مرضى من أصحابه، فأرسل إليه طبيباً نصرانياً يقال له ثابت، فما غاب عشرة أيام حتى عاد فقلنا لهما أسرع ما داويت المرضى! قال أحضروا عندي فارساً قد طلعت في رجله دملة وامرأة قد لحقها نشاف، فعملت للفارس لبخة ففتحت الدملة فصلحت، فحميت المرأة ورطبت مزاجها فجاءهم طبيب إفرنجي فقال لهم هذا ما يعرف شيئاً

يداويهم. وقال للفارس ايما لك ان تعيش برجل واحدة أو تموت برجلين. قالوا عيش برجل واحدة. قال
أحضروا لي فارساً قوياً وفأساً قاطعاً. حضر الفارس والفأس وأنا حاضر، فحط ساقه على قرمة خشب
وقال للفارس أضرب رجله بالفأس ضرباً واحداً واقطعها. فضربه وأنا أراه ضربة واحداً ما انقطعت، فضربه
ضربة ثانية فسال مخ الساق، ومات من ساعته. وأبصر المرأة فقال هذه المرأة في رأسها شيطان قد عشقها،
احلقوا شعرها، فحلقوه وعادت تأكل من ماكلهم الثوم والخردل فراد بها النشاف، فقال الشيطان قد دخل
في رأسها. فأخذ الموس وشق الرأس صليب وسلخ وسطه حتى ظهر عظم الرأس وحكه بالملح، فماتت من
وقتها. فقلت لهم بقي لكم إلي حاجة؟ قالوا لا. فجننت وتعلمت من طبهم ما لم أكن أعرفه. وقد شاهدت من
طبهم خلاف ذلك. كان للملك خازن من فرسانهم يقال له برناد لعنه الله، من ألين الإفرنج وارجسهم فرحمه
حصانه من ساقه فعملت عليه رجله وفتحت في أربعة عشر موضعاً والجراح كلما ختمت موضع فتح
موضع وأنا أدعو بهلاكه. فجاء طبيب إفرنجي فأزال عنه تلك المراهم وجعل يغسلها بالخل الحاذق فختمت
تلك الجراح وبرأ وقام مثل الشيطان. ومن عجيب طبهم انه كان عندنا بشيزر صانع يقال له أبو الفتوح له
ولد قد طلع في رقبة خنازير، وكلما ختم موضع فتح موضع، فدخل إنطاكية في شغل له ومعها ابنه، فرآه
راجل إفرنجي فسأله عنه فقاهو ولدي. قالت حلف لي بدينك إن وصفت لك دواء يبرئه لا تأخذ من أحد
تداويه به أجره حتى أصف لك دواء يبرئه؟ فحلف. فقال تأخذ له أشنان غير مطحون تحرقه وتربيته بالزيت
والخل الحاذق وتداويه به حتى يأكل الموضع، ثم خذ الرصاص الخرق وربه بالسمن، ثم داوه به فهو
يبرئه. فداواه بذلك فبرأ، وختمت تلك الجراح، وعاد ما كان عليه من الصحة. وقد داويت بهذا الدواء من
طلع فيه هذا الداء فنفعه وأزال ما كان يشكوه. فكل من هو قريب العهد بالبلاد الإفرنج اجفى أخلاقاً من
الذين قد تبلدوا وعاشروا المسلمين.

فمن جفاء أخلاقهم قبحهم الله، أني إذا زرت بيت المقدس دخلت إلى المسجد الأقصى، وفي جانبه مسجد
صغير جعلوه الإفرنج كنيسة. فكنت إذا دخلت المسجد الأقصى وفيه الداوية وهم أصدقائي، يخلون لي ذلك
المسجد الصغير اصلي فيه فدخلت يوماً كبرت ووقفت في الصلاة، فهجم علي واحداً من الإفرنج مسكني
ورد وجهي إلى الشرق وقال كذا صلي فتبادر إليه قوم من الداوية أخذوه أخرجوه عني، وعدت أنا إلى
الصلاة، فأغفلهم وعاد هجم علي ذلك بعينه ورد وجهي إلى الشرق وقال كذا صل! فعاد الداوية دخلوا إليه
وأخرجوه واعتدروا إلي وقالوا هذا غريب وصل من بلاد الإفرنج هذه الأيام، وما رأى من يصلي لغير
الشرق. فقلت حسبي من الصلاة! فخرجت وكت أعجب من ذلك الشيطان وتغير وجهه ورعدته وما لحقه
من نظر الصلاة إلى القبلة. ورأيت واحداً منهم جاء إلى الأمير معين الدين رحمه الله وهو في الصخرة فقال تريد
تبصر الله صغيراً؟ قال نعم. فمشى بين أيدينا حتى أرانا صورت مريم والمسيح عليه الصلاة والسلام صغير في
حجرها فقال هذا الله صغير - تعالى الله عما يقول الكافرون علواً كبيراً.

ليس للإفرنج غيرة جنسية

وليس عندهم شيء من النخوة والغيرة، يكون الرجل منهم يمشي هو وامرأته يلقيه رجل آخر يأخذ المرأة ويعتزل بها ويتحدث معها، والزوج واقف ناحية ينتظر فراغها من الحديث، فإذا طولت عليه خلاها مع المتحدث ومضى. ومما شاهدت من ذلك أني كنت إذا إلى نابلس أنزل في دار رجل يقال له معز داره عمارة المسلمين لها طاقات تفتح إلى الطريق، يقابلها من الجانب الطريق الأخر دار لرجل إفرنجي يبيع الخمر للتجار قد فتح بيته من هذا الخمر، من أراد منها شيئاً فهي من موضع كذا وكذا، واجرته عن نداءه النبيذ الذي في تلك القنينة فجاء يوماً ووجد رجل مع امرأته في الفراش فقال لها أي شيء أدخلك عند امرأتي؟ قالو وجدت فراشاً مفروشاً نمت فيه قالو المرأة نائمة معك؟ قال الفراش لها كنت أقدر أن أمنعها من فراشها؟ قال وحق ديني إن عدت فعلتها تخاصمت أنا وأنت. فكان هذا نكيره ومبلغ غيرته.

ومن ذلك انه كان عندنا رجل حمامي يقال له سالم من أهل المعرة في حمام لوالدي رحمه الله قالفتحت حماماً في المعرة أتعيش فيها، فدخل إليها فارس منهم وهم ينكرون على من يشد في وسطه التزر في الحمام، فمد يده وجذب متزري من وسطي رماه، فرآني وأنا قريب عهد بحلق عانتي، فقال سالم فتقربت منه، فمد يده على عانتي وقال سالم جيد! وحق ديني أعمل لي كذا واستلقى على ظهره وله مثل لحيته في ذلك الموضع، فحلقتة فمر يده عليه فستوطأه فقال سالم بحق دينك اعمل للدام والدام بلسانهم الست يعني امرأته. وقال لغلام لهقل للداما تحيي. فمضى الغلام أحضرها وأدخلها، فاستلقت على ظهرها وقالوا عمل كما عملت لي، فحلقت ذلك الشعر وزوجها قاعد ينظري فشكرني ووهبني حق خدمتي. فانظروا إلى هذا الاختلاف العظيم فيهم الغيرة والنخوة وفيهم الشجاعة العظيمة، وما تكون الشجاعة إلا من النخوة والألفة من سوء الأحداث. ومما يقارب هذا أنني دخلت الحمام بمدينة صور فجلست في خلوة فيها. فقال لي بعض غلماني في الحما معنا امرأة. فلما خرجت جلست على المسطاب وإذا التي كانت بالحمام قد خرجت وهي مقابلي قد لبست ثيابها وهي واقفة مع أبيها ولم أتحدث أنها امرأة. فقلنا بالله أبصر هذه امرأة هي. وأنا أقصد أن يسأل عنها. فمضى وأنا أراه رفع ذيلها وطلع فيها فألثفت إلي أبوها وقال هذه ابنتي ماتت أمها وما لها من يغسل رأسها، فأدخلتها معي الحمام غسلت رأسها. فلتجيد عملت، هذا لك فيه ثواب.

عجائب طبهم أيضا

ومن عجيب طبهم ما حدثنا به كليما دبور صاحب طبرية وأنا معه، فحدثنا في الطريق فقال كان عندنا في بلادنا فارس كبير القدر فمرض واشرف على الموت، فجننا إلى قس من قسوسنا قلنا تحيي معنا حتى تبصر الفارس فلاناً؟ قال نعم. فمشا معنا ونحن نتحقق انه إذا حط يده عليه عوفي فلما رآه قالوا عطيني شمعاً. فاحضرننا له قليل شمع، فلينه وعمله مثل عقد الإصبع، وعمل كل واحدة في جانب أنفه، فمات الفارس قلنا لهقد مات قال نعم كان يتعذب سددت أنفه حتى يموت ويستريح.

دع ذا وعد القول في هرم .

نرجع من حديث مجاربه حضرت في طبرية في عيد من أعيادهم، وقد خرج الفرسان يلعبون بالرماح، وقد خرج معهم عجوزان فانيتان أوقهوهما في رأس الميدان، وتركوا في رأسه الآخر خنزيراً سمطوه وطرحوه على صخرة، وسابقوا بين العجوزين ومع كل واحد منهم سرية من الخيالة يشدون منها، والعجائز يقمن ويقعن على كل خطوة وهم يضحكون حتى سبقت واحده منهن لأخذت ذلك الخنزير في سيقها. وشاهدت يوماً في نابلس وقد حضروا أثنين للمبارزة، وكان سبب ذلك أن كان حرامية من المسلمين كبسوا ضيعة من ضياع نابلس فأثموا بها رجلا من الفلاحين وقالوا هو دل الحرامية على الضيعة فهرب. فنفذ الملك قبض أولاده فعاد إليه وقال انصفي أنا أبارز الذي قال عني أني دللت الحرامية على القرية. فقال الملك لصاحب القرية المقطعا حضر من يبارزه فمضى إلى قريته وفيها رجل حداد فأخذه وقال له تبارز إشفاقاً من المقطع على الفلاحيه لا يقتل فيهم واحد لا يقتل منهم واحد فتخرب فلاحته. فشاهدت هذا الحداد وهو شاب قوي إلى انه قد انقطع، يمشي ويجلس ويطلب ما يشربه، وذلك الآخر الذي يطلب البراز شيخ إلا انه قوي النفس يزر وهو غير محتفل بالمبارزة، فجاء البسكند وهو شحنة البلد، لأعطي كل واحد منها العصا والترس، وجعل الناس حولهم حلقة. والنقيا وكان الشيخ يلز ذلك الحداد وهو يتأخر حتى يلجته إلى حلقة، ثم يعود إلى الوسط. وقد تضاروا حتى بقيا كعامود الدم. فطال الأمر بينهما والبسكند يستعجلهما وهو يقول بالعجلة، ونفع الحداد إدمانه بضرب المطرقة. وأعي ذلك الرجل فضربه الحداد فوق وقع ووقعت عصاه تحت ظهره، فبرك عليه الحداد يداخل إصبغه في عينه ولا يتمكن من كثرة الدم من عينه، ثم قام عنه وضرب رأسه بالعصا حتى قتله. وطرحوا في رقبته حبلاً وجروه شتقوه. وجاء صاحب الحداد أعطاه غفارته وأركبه خلفه وأخذه وانصرف. وهذا من جملة فقهم وحكمهم لعنهم الله. ومضيت مرة مع الأمير معين الدين رحمه الله إلى القدس، فزلنا نابلس. فخرج إلى عنده رجل أعمى وهو شاب عليه ملبوس جيد مسلم، وحمل له فاكهة وسأله في أن يأذن له في الوصول إلى خدمته إلى دمشق ففعل، وسألت عنه فخبرت ان أمه كانت مزوجه لرجل إفرنجي فقتلته، وكان ابنه يحتال على حجاجهم ويتعاون هو وأمّه على قتلهم، فأثمموه بذلك وعملوا له حكم الإفرنج جلسوا بنية عظيمة وملتوها ماء عرضوا عليها دف خشب وكتفوا ذلك التهم وربطوا في أكتافه حبلاً ورموه في البنية - فإن كان برياً غاص في الماء، فحرص ذلك لما رموه في الماء ان يغوص فلما قدر. فوجب عليه حكمهم لعنهم الله فكحلوه. ثم ان رجل وصل إلى دمشق فاجرى له الأمير معين الدين رحمه الله ما يحتاجه. وقال لبعض غلمانهممضي به إلى البرهان الدين البلخي رحمه الله تقول له تأمر من يقرئ القرآن وشيئاً من الفقه. فقال له ذلك الأعمى النصر والغلب! ما كان هذا ظني! قالما ظننت بي! قالعطيني الحصان والبعلة والسلاح وتجعلني فارساً قالما اعتقدت ان أعمى يصير من الفرسان.

ومن الإفرنج قوم قد تبدوا وعاشروا المسلمين فهم أصلح من القريب العهد ببلادهم، ولكنهم شاذ لا يقاس عليه. فمن ذلك أنني نفذت صاحباً إلى إنطاكية في شغل، وكان بها الرئيس نادر بن الصفي وبيني وبينه صداقة، وهو نافذ الحكم في إنطاكية. فقال أصحابي يوماً قد دعاني صديق لي من الإفرنج، تحيى معي تراى زيبهم قالمضيت معه فجننا إلى دار فارس من الفرسان العتق الذين خرجوا في أول خروج الإفرنج، وقد اعتقى من الديوان والخدمة، وله إنطاكية ملك يعيش منه، فأحضر مائدة حسنة وطعاماً في غاية النظافة والجودة، ورآني متوقفاً عن الأكل فقال كل طيب النفس، فأنا ما أكل من طعام الأفرنج ولي طبابخات مصريات لا أكل إلى من طبخن، ولا أدخل داري لحم خنزير. فأكلت وأنا محترز وانصرفنا. فأنا بعد مجتازاً في السوق وامرأة إفرنجية تعلقت بي وهي تبربر بلسانهم وما أدري ما تقول. فاجتمع علي خلق من الأفرنج فأيقنت من الهلاك. وإذا ذلك الفارس قد أقبل فرآني، فجاء فقال لتلك المرأة مالك ولهذا المسلم؟ قالت هذا قتل أخي عرس، وكان هذا عرس فارساً بأفامية قتله بعض جند حماة. فصاح عليهم وقال هذا رجل برجاسي أي تاجر لا يقاتل ولا يحضر قتال وصاح على أولئك المجتمعين، فنفروا وأخذ يدي ومضى، فكان تأثير تلك المواقلة خلاصي من القتل.

اختبارات وملاحظات

الخوف من الفأرة والحية

ومن عجائب القلوب أن الإنسان يخوض المغامرات ويركب الأخطار ولا يرتاع قلبه من ذلك، ويخاف ممن لا يخاف منه الصبيان والنسوان. ولقد رأيت عمي عز الدولة أبا العساكر سلطان رحمه الله وهو من أشجع أهله له مواقع المشهورة والطعنات المذكورة، وهو إذا رأى الفأرة تغيرت صورة وجهه ولحقه كالزعم من نظرها وقام من الموضع الذي يراها فيه. وكان في غلمانة رجلاً شجاعاً معروف بالشجاعة والأقدام اسمه صندوق يفرع من الحية حتى يخرج عقله. فقال له والذي رحمه الله وهو واقف بين يدي عمي يا صندوق أنت رجل جيد معروف بالشجاعة ما تستحي تفرع من الحية؟ قال يا مولاي أي شيء في هذا من العجب؟ في حصص رجل شجاع بطل من الأبطال يفرع من الفأر ويموت - يعني مولاه. فقال عمي رحمه الله سبحانه الله يا كذا وكذا. ورأيت مملوكاً لولدي يرحمه الله يقال له لؤلؤ، وكان رجلاً جيداً ومقداماً. وقد خرجت ليلة من شيزر ومعها بغال كثيرة وبهائم أريد أحمل عليها من الجبل خشباً قد قطعته هناك لناعورة لي، فسرنا من ظاهر شيزر ونحن نظن أن الصبح قد دنا، فوصلنا إلى قرية يقال لها ديس، وما تصف الليل. فقلت أنزلوا ما ندخل الجبل في الليل. فلما نزلنا واستقرنا سمعنا صهيل حصان فقلنا الإفرنج! فركبنا في الظلام وأنا أحدث نفسي ان أظن رجل واد منهم وآخذ حصانهم ويأخذون دوابنا والرجل الذي مع الدواب، فقلت للؤلؤ وثلاثة من الغلمان تقدمونا اكتشفوا هذا الصهيل. فتقدمونا يركضون فلقوا أولئك وهم في جمع وسواد كثير، فسبق إليهم لؤلؤ وقالنكلموا إلى قتلنكم كلكم وهو رام جيد، فعرفوا صوته وقالوا حاجب لؤلؤ؟ قال نعم. وإذا هم عسكر

حمّاة مع الأمير سيف الدين سوار رحمة الله قد أغار على بلاد الإفرنج وعاد وكان هذه أقدمه على ذلك الجمع، وإذا رأى في بيته حية خرج منهزماً وقال لامرأته دونك والحية! فتقوم إليها تقتلها.

جرح وضبعة

والحارب ولو انه الأسد اتلفه واعجز اليسير من العوائق كما أصابني على حمص. خرجت وقتل حصاني وضربت خمسين سيفاً - كل ذلك لنفاذ المشيئة، ثم لتواني الركابي في تركيب عنان اللجام، فإنه عقده في الباشات ولم يشقه. فلما جذبته أريد الخروج من بينهم النحل العنان من عقده في الباشات، فنالني ما نالني. وقد كان صاح صائح يوماً بشيزر من قبله فلبسنا وفرعنا. فكان الصائح كذاباً. فرحل أبي وعمي رحمهما الله ووقفت بعدهما، فوقع الصائح من الشمال من جانب الإفرنج، فركضت حصاني إلى الصائح، فرأيت الناس في المخاض يركب بعضهم بعضاً وقالوا الإفرنج! فعبرت المخاض وقتل للناس بأس عليكم أنا دونكم! ثم طلعت أركض إلى رابية القرافطة، وإذا الخيل مقبلة في جمع كثير، وقدم تقدم منهم فارس لابس ذردية وخوذة وقد دنا مني فقصدته استفرص بعضه من أصحابي واستقبلي، فحين حركت حصاني إليه انقطع ركابي وما بقي لي مندوحة عن لقائه فقمتم إليه بلا ركاب، فلما تدنينا ولم يبقى إلا الطعن سلم علي وخدمني وإذا هو السلار زين الدين إسماعيل بن عمر بن بختيار، وكان نهض مع عسكر حمّاة إلى بلد كفرطاب، فخرج عليهم الإفرنج فعادوا إلى شيزر منهزمين، وتقدمهم الأمير سوار رحمة الله. فسبيل الرجل الحارب يتفقد عدة حصانه، فإن أيسر الأشياء وأقلها يؤذي ويهلك، كل ذلك مقرون بما يجري به الأقدار والأقضية. وقد شهدت قتال الأسد في مواقف لا يحصيها، وقتلت عدة منها لم يشركني أحد في قتلها، فما نالني من شيء منها أذى. وخرجت يوماً مع والدي برحمة الله إلى الصيد في جبل قريب من البلد نصيد منه الحجل بالبزاة، ولم يكن الوالد رحمة الله ونحن معه والبازيرية على الجبل وبعض الغلمان والبازيرية أسفل من الجبل للتخليص من الزاة والوقوف على النيج، فقامت لنا ضبعة فدخلت مغارة، وفي تلك المغارة محجر دخلت فيه فصحت بغلام لي ركابي اسمه يوسف خلع ثيابه وأخذ سيكته ودخل في ذلك المحجر، وأنا في يدي قنطارية مستقبل الموضع إذا خرجت طعنيتها، فصاح الغلام إليكم قد خرجت! فطعنيتها أخطأتما لأن الضبعة رقيقة الحجم. وصاح الغلام عندي ضبعة أخرى! فخرجت في إثرها، فقمتم وقتت في باب المغارة وهي دقيقة الباب متعليه مقدار قامتين أنظر ما يعمل أصحابنا الذين في الوطا بالضباع التي نزلت إليهم، فخرجت ضبعة ثالثة، وأنا مشغول بالنظر إلى الأوائل، فندستني رمتني من باب المغارة إلى قراره التي تحته فكادت تكسرنني فتأذيت بضبعة وما تأذيت بالسباع، فسبحان مقدر الأقدار ومسبب الأسباب.

الخادم والقصاد ونشر الساق وغيره

وشاهدت من ضعف نفوس بعض الرجال وخورهم ما لا كنت أظن بالنساء. فمن ذلك أنني كتبت على باب دار والدي رحمة الله وأنا صبي وعمري دون العشر سنين، فلطم غلام لوالدي اسمه محمد العجمي صبياً من

خدام الدار فأنهزم منه وجاء تعلق بثوبي، فلحقه وهو ماسك بثوبي فلطمه، فضربته بقضيب كان في يدي فدفعني، فجدبت من وسطي سكيناً ضربته بها فوقعت في بزه الأيسر فوقع. وجاءنا غلام كبير لوالدي يقال له القائد أسد فوقف عليه ونظر الجرح وإذا تنفس طلع منه الدم مثل فواقع الماء، فاصفر وارتعد ووقع مغشياً عليه، فحمل إلى داره وكان يسكن معنا في الحصن على تلك الحال، فما أفاق من غشيته إلى آخر النهار، وقد مات الجروح وقبر. ومما يقارب ذلك كان يزورنا رجل من أهل حلب فيه فضل وأدب يلعب بالشطرنج طبقة ويلعب بها غائباً يقال له أبو المرجى سالم بن قانت رحمه الله، فكان يقيم عندنا سنة ولأكثر ولأقل، فرمما مرض فيصف له الطبيب الفصاد، فإذا حضر الفصاد تغير لونه وأرتعد، فإذا فصده غشي عليه فلا يزال في غشيته حتى يشد فصاده ثم يفيق. ومما يضاد ذلك انه كان في أصحابنا من بني كنانة رجل أسود يقال له عي ابن فرج طلعت في رجله حبة فتخبث وتناثرت أصابعه وانتت رجله فقال له الجراح إذا لم يزل إلا القلع وإلا تلفت. فحصل عنده منشاراً وجعل ينشر ساقه حتى يغلبه فيض الدم ويغشى عليه، فإذا هو أفاق عاد نشرها حتى قطعها من نصف ساقه وداوها فبرأت. وكان رحمه الله من أجلد الرجال وأقواهم، فكان يركب في سرجه بركاب واحد، وفي الجانب الآخر سير تكون فيه ركبته، ويحضر القتال ويطاعن الإفرنج وهو في تلك الحال، وكنت أراه رحمه الله لا يستطيع رجل يشابكه ولا يقابضه، وكان خفيف الروح مع قوته وشجاعته. فأصبح يوماً من الأيام وهو وبنو كنانة يسكنون حصننا حصن الجسر، أرسل إلى رجال من وجوه بني كنانة فقالوا ليوم مطير وعندي فضلة نبيذ وما أكل تفضلون علي بالحضور لنشرب. فاجتمعوا عنده فجلس في باب البيت وقاهل فيكم من يخرج من الباب إن لم أشأ؟ يشير إلى قوته. قالوا والله. قالهنا يوم مطير، وما أصبح في داري دقيق ولا خبز ولا نبيذ، وما فيكم إلا من في داره ما يحتاجه ليومه، أنفذوا إلى دوركم أحضروا طعامكم ونبيذكم، والبيت من عندي، ونجمع اليوم نشرب وتحدث. قالوا كلهم نعم ما رأيت يا أبا الحسن! وأنفذوا واحضروا ما في دورهم من طعام وشراب وقضوا نهارهم عنده، وكان رجلاً محترماً، فتعالى من خلق الخلق أطواراً أين جلد هذا وقوة نفسه من خور أولئك وضعف نفوسهم؟ وقريب من هذا ان رجلاً من بني كنانة حدثني بحصن الجسر ان رجلاً في الحصن استسقى فشق بطنه وبرئ وعاد صحيحاً كما كان. فقلت أريد أبصره واستخبره. وكان الذي حدثني رجل من بني كنانة يقال له أحمد بن معبد بن أحمد فاحضر ذلك الرجل عندي فاستخبرته عن حاله وكيف فعل في نفسه فقال أنا رجل صعلوك وحيد استسقى جوفي وكبرت حتى عجزت عن التصرف وتبرمت بالحياة فأخذت موسى فضربت به فوق سرتي في عرض جوفي، شققته فخرج منه قدر طباخين ماء يعني قدرين. وما زال الماء ينزل منه حتى ضمير جوفي، فخيطته وداويت الجرح فبرأ، فزال ما كان بي. وأراني موضع الشق في جوفه أطول من شبر ولا شبهة ان هذا الرجل كان له في الأرض رزق يستوفيه. وإلا فقد رأيت من استسقى وفصد الطبيب جوفه فخرج منه الماء كما خرج من الذي بزل نفسه إلا أنه مات من ذلك الفصد، لكن الأجل حصن حصين.

فرسان الإفرنج يهاجمون شيزر ويفشلون

النصر في الحرب من الله تبارك وتعالى لا بترتيب وتدبير ولا بكثرة نغير ولا نصير، وقد كنت إذا بعثني عمي رحمه الله لقتال أتراك أو إفرنج أقوله لهما مولاي أمرني بما أتدبر به إذا لقيت العدو. فيقوليا بني الحرب تدبر نفسك وصدق. وكان امرني ان آخذ امرأته وأولاده خاتون بنت تاج الدولة تتش والعسكر وامضي أوصلهم إلى حصن مصياث وهو إذ ذاك له، وكان يشفق عليهم من حر شيزر، فركبت وركب أبي وعمي رحمهما الله معنا إلى بعض الطريق، وعاد وليس معهما إلى الممالك الصغار لجر الجنائب وحمل السلاح والعسكر كله معي. فلما قربا من المدينة سمعا طبل الجسر يضرب. فقالا شيء قد جرى في الجسر فدفعنا خيلهما تناقلا ونجياً إلى الجسر. وكان بيننا وبين الإفرنج لعنهم الله هدنة. فنفذوا من كشف لهم مخاضة يعبرون منها إلى مدينة الجسر وهي في الجزيرة لا يعبر إليها إلا من الجسر معقود بالحجر والكلس لا يصل الإفرنج إليه، فدلهم ذلك الجاسوس على مخاضه، فركبوا جميعهم من افامية فأصبحوا إلى ذلك الموضع الذي دهم عليه، عبروا الماء وملكوا المدينة ونهبوا وسلبوا وقتلوا ونفذوا بعض السبي والنهب إلى افامية وملكوا الدور، وعلم كل واحد منهم صليبه على دار وركز عليه رايته. فلما اشرف أبي وعمي رحمهما الله على الحصن كبر أهل الحصن وصاحوا. فألقى الله سبحانه وتعالى على الإفرنج الرعب والخذلان فذهلوا على الموضع الذي عبروا منه ورموا خيلهم وهم بدروعهم عليها في غير مخاض، ففرق منهم جماعة كثيرة كان الفارس يغوص في الماء فيسقط عن سرجه ويرسب في الماء ويطلع الحصان. ومضى من سلم منهم منهزمين لا يلوي بعضهم على بعض وهم في جمع كثير، وأبي وعمي معهما عشرة ممالك صبيان. فأقام عمي في الجسر ورجع أبي إلى شيزر، وواصلت أنا وأولاد عمي إلى مصياث وعدت من يومي وصلت العشاء فأخبرت بما جرى، فحضرت عندي والذي رحمه الله وشاورته في ان امضي إلى عمي إلى حصن الجسر. قالتصل في الليل وهم نيام. ولكن سر عليهم من بكرة. فأصبحت سرت وحضرت عنده وركبنا وقفنا على ذلك الموضع الذي غرق فيه الإفرنج ونزل إليه جماعة من السباح فأخرجوا جماعة من فرسانهم موتى. فقلت لعمي مولاي ما نقطع رؤوسهم ونفذهما إلى شيزر؟ قال فعل فقطعنا منهم نحو من العشرين رأساً فكان الدم يسيل منهم كأنهم قد قتلوا تلك الساعة ولهم يوم وليلة. وأظن الماء حفظ فيهم دمهم.

وغنم الناس منهم سلاحاً كثيراً من الزرديات والسيوف والقنطاريات والخوذ والكلسات والزرد. ورأيت رجلاً من الفلاحين الجسر حضر عند عمي ويده في ثيابه. فقال له عمي يمزح معي شيء أعزلت لي من الغنيمة؟ قال أعزلت لك حصاناً بعدته وزرديته وترساً وسيفاً. ومضى أحضر الجميع، فأخذ عمي العدة وأعطاه الحصان وقال أي شيء يبيلك؟ قاليا مولاي تقابضت أنا والإفرنجي ولا معي عدة ولا سيف فرميتة ولكمت وجهه وعليه اللثام الزرد حتى أسكرته وأخذت سفه وقتلته به، وقرأ الجلد على عقده أصابعي وورمت يدي فما تنفعني. وأظهر لنا يده وهي كما قال قد انكشفت عظام أصابعه.

وكان في جند الجسر رجل كردي يقال له أبو الجيش وله بنت اسمها رفول قد سبها الإفرنج، وهو قد توسوس عليها يقول لكل من لقيه يوماً سييت رفول! فخرجنا من الغد نسير على النهر فرأينا في جانب الماء سواداً فقلنا لبعض الغلمان اسبح ابصر ما هذا السواد. فمضى إليه فإذا ذلك السواد رفول عليها ثوب أزرق

وقد رمت نفسها من على فرس الإفرنجي الذي أخذها فغرقت، وعلق ثوبها في شجرة الصفصاف، فسكنت لوعة أبيها أبي الجيش فكانت الصيحة التي وقعت في الإفرنج وهزيمتهم وهلاكهم من لطف الله عز وجل لا بقوة ولا بعسكر. فبارك الله القادر على ما يشاء. وقد يكون الترهيب في بعض الأوقات نافع في الحرب. من ذلك ان أتاك وصل الشام وأنا معه في سنة تسع وعشرين وخمس مائة وصار قاصداً دمشق. فلما نزلنا القطيفة قال لي صلاح الدين رحمه الله الهار ك و تقدمنا إلى فستقة. أقم على الطريق لا يهرب أحد من العسكر إلى دمشق. فتقدمت ساعة وإذا صلاح الدين قد أتى في قلة من الصحابة. فرأينا بعداء دخاناً فأرسل خيلاً تبصر ما هو دخان. فإذا هم قوم من عسكر دمشق يحرقون الثبن الذي في عناء فأنهمزوا، فتتبعهم صلاح الدين ونحن معه لعل في ثلاثين أربعين فارساً فوصلنا القصير وإذا عسكر دمشق جميعه في القصير قاطع الجسر ونحن عند الحان فوقنا مستترين بالخان، ويخرج منا خمسة سته فوارس حتى يبصرهم عسكر دمشق ويعودون إلى خلف الحان نوههم ان لنا كميناً ونفذ صلاح الدين فارساً إلى أتاك يعرفه ما نحن فيه. فرأينا نحواً من عشرة فوارس مقبلين إلينا مسرعين والعسكر خلفهم متتابع. فوصلنا فإذا هو أتاك قد تقدم والعسكر في إثره. فأنكر على صلاح الدين فعله وقاتلتهسرت إلى باب دمشق بثلاثين فارساً لتكسر يا موسى ولامه وهم يتكلمون بالتركي ولا أدري ما يقولون. فلما وصلنا أوائل العسكر قلت لصلاح الدين عن أمرك اخذ هؤلاء الذين قد وصلوا وأعبر إلى خيل دمشق الواقعة مقابلهم اقلعهم. قالوا كذا وكذا ممن ينصح في خدمة هذا! ما تسمع أي شيء قد عمل بي؟ ولولا لطف الله تعالى ثم ذلك الترهيب والتخييل كانوا قلعونا. وجرى لي مثل ذلك وقد سرت مع عمي رحمه الله من شيزر يريد كفرطاب ومعنا خلق من الفلاحين والصعاليك لنهب ما على كفرطاب من غلة وقطن. فانتشر الناس بالنهب وخيل كفرطاب قد ركبت ووقفت عند البلد، ونحن بينهم وبين الناس المنتشرين في الزرع والقطن، وإذا فارس من أصحابنا يركض من الطلائع قالجات خيل افامية! فقال عمي تقف أنت مقابل خيل كفرطاب، واسير أنا بالعسكر ألقى خيل افامية. فوقف في عشر فوارس من شجر الزيتون متوارين، ويخرج منا ثلاثة أربعة يخيلون للفرنج ويعودون إلى شجر الزيتون، والإفرنج يعتقدوننا اننا في جماعة فيهم يجتمعون ويصيحون ويدفعون خيلهم إلى ان يقربوا منا ونحن لا نتزعزع فيرجعوا، فما زلنا كذلك حتى عاد عمي وأنهمزوا الإفرنج الذين جاءوا من افامية. فقال له بعض غلمانها مولاي ترى ما فعل يعني؟ تخلف عنك وما سار معك للقاء خيل افامية. فقال له عميلولا وقوفه في عشرة فوارس مقابل خيل كفرطاب وراجلها كانوا اخذوا هذا العالم كله. فكان الترهيب والتخييل للإفرنج في ذلك الوقت انفع من قتالهم لأننا كنا قلة وهم في جمع كثير.

الخام المسروق وقلة الخبرة

وجرى لي مثل ذلك بدمشق، كنت يوماً مع الأمير معين الدين رحمه الله فأتاه فارس فقال قد أخذ الحرامية قافلة في العقبه حاملة خام فقال لينركب إليهم. فقلت الأمر لك، أمر الشاوشية تستركب العسكر معك. قال أي شيء حاجتنا إلى العسكر؟ قتلوما يضرنا من ركوبهم؟ قال ما نحتاجهم. وكان رحمه الله من أشجع الفرسان، واكن قوة النفس في بعض المواضع تفريط ومضرة. فركبنا في نحو من عشرين فارساً، فلما أن

ضحونا نفذ فارسين كذا وفارسين كذا وفارسين كذا يكشفون الطرقات. وسرنا نحن في قلة
فحانت صلاة العصر. فقلت ا لغلام ليا سونج أشرف مغرباً إلى ما نصلي. فما سلمنا إلا والغلام
يركض. قالهذه الرجالة وعلى رؤوسهم شقاق الخام في الوادي! فقال معين الدين رحمه اللهار كبا. قلتأمهل
علينا نلبس كراغنداتنا فإذا رأيناهم رميناهم برؤوس الخيل وطعناهم فما يدرون كثير نحن أو قليل. قالإذا
وصلنا إليهم لبسنا. وركب وسرنا إليهم فلحقناهم في وادي حلبون وهو واد ضيق لعل ما بين الجبلين خمسه
أذرع، والجبال من جانبيه وعره رفيعة وطريقه ضيقه إنما يمشي فيها فارس، وهم قي سبعين رجلا بالقسي
والنشاب. فلما وصلناهم كان غلماننا خلفنا بسلاحنا لا يصلون إلينا وأولئك قوم منهم في الوادي ومنهم
قوم في سفح الجبل، فظننت ان الذين في الوادي من أصحابنا فلاحي الضياع قد فرعوا خلفهم والذين في
الجبل هم الحراميه، فجدبت سيفي وحملت على الذين في السفح. فلما طلع الحصان في ذلك الوعر إلا بآخر
روحه. فلما صرت إليهم وحصاني قد وقف ما بقي يندفع استوفى واحد منهم نشبته في فوقه ليضربني،
فصحت عليه وتمددت فمسك يده عني، وعدت اتزلت الحصان وما اصدق اخلص منهم.
وطلع الأمير معين الدين إلى أعلى الجبل يظن أن هناك من الفلاحين من يستفزه، وصاح إلي من أعلى
الجبللا تفارقهم حتى أعود وتراي عنا. فرجعت إلى الذين في الوادي وقد علمت أنهم من الحرامية فحملت
عليهم وحدي لضيق المكان فأنهزما وراموا ما كان معهم من الخام. وخلصت منهم بميتين كانت عليهما خام
ايضاً، وطلعوا إلى المغارة في سفح الجبل ونحن نراهم وما لنا إليهم سبيل. وعاد الأمير معين الدين رحمه الله
آخر النهار وما وجد من يستفزه، ولو كان معنا العسكر كنا ضربنا رقابهم واستخلصنا كل ما معهم.
وقد جرى لي مرة أخرى مثل هذا والسبب فيه نفاذ المشيئة ثم قلة المخبرة بالحرب، وذلك اننا سرنا مع
الأمير قطب الدين خسرو بن تليل من حماة نريد دمشق إلى خدمة الأمير العادل نور الدين رحمه الله فوصلنا
إلى حصص. فلما عزم على الرحيل على طريق بعلبك قلت لهأنا أتقدم ابصر الكنيسة بعلبك إلى حين تصل. قال
افعل. فركبت ومضية، فأنا في الكنيسة جائي فارس من عنده يقولقد خرجت رجالة حرامية على قافلة
أخذها، فاركب ولقني إلى الجبل فركبت ولقيته، فصعدنا في الجبل فلقينا الحرامية في وادي تحتنا، والجبل
الذي نحن عليه محيط بذلك الوادي. فقال له بعض أصحابنا نزل إليهم. قلتلا تفعل، ندور على الجبل ونصير
فوق رؤوسهم نحول بينهم وبين طريقهم إلى المغرب ونأخذهم. وكانوا من بلاد الأفرنج، فقال آخري ما
ندور على الجبل نكون قد وصلنا إليهم وأخذناهم فنزلنا. فلما رأنا الحرامية صعدوا في الجبل. فقال ليصعد
إليهم. فحرصت على الطلوع، فما قدرت. وكان على الجبل من خيالة ستة سبعة فترجلوا إليهم وجاءوا
يقدون خيلهم معهم وأولئك في جماعة. فحملوا على أصحابنا فقتلوا منهم فارسين وأخذوا حصانهم
وحصاناً آخر وسلم صاحبه، ونزلوا من جانب الجبل الأخر بالغنية. وعدنا نحن وقد قتل من فارسان وأخذ
منا ثلاثة حصن وقافلة. فهذا تغريب لقلة المخبرة بالحرب.

فأما التغرير في الأقدام فما هو للزهد في الحياة، وإنما سببه ان الرجل إذا عرف بالأقدام ووسم بأسم الشجاعة وحضر القتال طالبتة همته بفعل ما يذكر به ويعجز عنه سواه، وخافت نفسه الموت وركوب الخطر كادت تغلبه وتصدده عما يريد يفعله حتى يضطرها ويحملها على مكروهاها، فيعتبره الزمعة وتغير اللون لذلك. فإذا دخل في الحرب بطل روعه وسكن جأشه. ولقد حضرت حصار الحصن الصور مع ملك الأمراء أتاك زكي رحمه الله وتقدم شيء من ذكره، وكان للأمير فخر الدين أرسلان بن داود بن سقمان بن ارتق رحمه الله، وكان محشوناً بالرجال الجرعية. وذلك بعد كسرتة على آمد، فأول ما ضربت الخيام نفذ رجلاً من أصحابه صاح تحت الحصن جماعة الجرعية، يقول لكم أتاكونعمة السلطان لنن قتل من أصحابي رجلاً واحداً بنشابكم لأقطعن أيديكم. ونصب على الحصان المناجيق فهدمت جانباً منه وبلغ الهدم منه بحيث نطلع الرجال، فجاء رجل من جنادرية أتاك من أهل حلب يقال له ابن العريق طلع في تلك الثغرة وضاربهم بسيفه فجرحوه عدة جراح ورموه من البرج إلى الخندق، وتكاثر الناس عليهم في تلك الثغرة فملكوا الحصن، وطلع نواب أتاك إليه فأخذوا مفاتيحه نفذها إلى حسام الدين تمرتاش بن إيلغازي بن أرتق وأعطاه الحصن. واتفق ان نشابة جرح ضربت رجلاً من الخرسانية في ركبتة قطعت الفلكة التي على المفصل الركبة فمات. فأول ما ملك أتاك الحصن استدعى الجرعية وهم تسعة نفر، فجاءوا وقسيهم موترة على أكتافهم، فأمر بجز إماماتهم من زنودهم فاسترخت أيديهم وتلفت.

وأما ابن العريق فداوى جراحه وبراء بعد ان شارف على الموت، وكان رجلاً شجاعاً يحمل نفسه على الأخطار. ورأيت مثل ذلك وقد نزل أتاك على الحصن البارعة وحوله صفا صخر لا تنضرب عليه الخيام، فنزل أتاك في الوطا ووكل به الأمراء بالنوبة. فركب إليه أتاك يوماً والنوبة للأمير أبي بكر الديبسي وما معه أهبة القتال، فوقف أتاك وقال لأبي بكر تقدم قاتلهم. فزحف بأصحابه يقال له مزيد، لم يكن قبل ذلك من المشهورين بالقتال والشجاعة، فقاتل قتالاً عظيماً وضرب فيهم بسيفه وفرق جمعهم وجرح عدة جراح، فرأيتة قد حملوه إلى العسكر وهو في آخر رمقه ثم عوفي، وقدمه أبو بكر الديبسي وخلع عليه وجعله من جملة جنادرية.

الغسياني يقطع من يشاء نصفين ويسبي المعاهدين

كان أتاك يقول لي ثلاثة غلمان أحدهم يخاف الله تعالى ولا يخافني يعني زين الدين علي كوجك رحمه الله، والآخر يخافني وما يخاف الله تعالى يعني نصير الله صتقر رحمه الله والآخر ما يخاف الله ولا يخافني يعني صلاح الدين محمد بن أيوب الغسياني رحمه الله. وشهدت منه تجاوز الله عنه، ما يحقق قول أتاك، وذلك أنا زحفنا يوماً على حمص وقد أصاب الأرض مطراً عظيماً حتى ما بقيت الخيل تتصرف من ثقل الأرض بالوحد والرجالة يتناوشون وصلاح الدين واقف وأنا معه، ونحن نرى الرجالة بين أيدينا، فعدا واحد من الرجالة إلى رجالة حمص أختلط بهم، وصلاح الدين يراه فقال لواحد من أصحابهيات ذاك الرجل الذي كان إلى جانبه. فمضى أحضره، فقال لهمن هذا الذي كان انهزم من جانبك دخل إلى حمص؟ قالوا الله يا مولاي ما اعرفه. قال وسطوه قلتيا مولاي تعتقله وتكشف عن ذلك الرجل فإن كان يعرفه أو مته بنسب ضربت

رقيبته، وإلا ترى فيه رأيك. فكأنه جنح إلى قولي، فقال غلام له من خلفه يهرب واحد يؤخذ الذي كان في جانبه تضرب رقيبته أو يوسط. فأحنته كلامه وقالوسطوه، فرفسوه كالجاري العادة ووسطوه وما له ذنب إلا اللجاج وقلة مراقبة الله تعالى. وحضرته مرة أخرى بعدما وصلنا من مصاف بغداد، وأتابك يجتهد يظهر تجلداً وقوة وقد أمر صلاح الدين بالمسير إلى الأمير قفجاق يكبسه، فسرنا من الموصل ستة أيام ونحن في غاية الضعف، فوصلنا موضعه وجدناه قد تعلق في جبال كوهستان، فنزلنا على حصن يقال له ماسر ونزلنا عليه طلوع الشمس، وامرأة طلعت من الحصن وقالتمعمكم خام؟ قلناأي وقت هذا للبيع والشراء؟ قالتتريد الخام نكفنكم به. فإلى خمسة أيام تمتون كلكم. تريد ان ذلك الموضع وخم. فنزل ورتب الزحف من بكرة وأمر النقبائين الدخول تحت البرج من تلك البراج، والحصن كله معمور بالطين، والرجال الذين فيه من الفلاحين، فرحنا إليه وطلعنا إلى التلة، ونقب الخرسانية برجاً فوق وعليه إثنان، أما الواحد فمات أما الآخر فأخذه أصحابنا وجاءوا به إلى صلاح الدين. قال وسطوه. قلت يا مولاي هذا شهر رمضان، وهذا رجلاً مسلم لانقلد إثمه قالوسطوه حتى يسلموا الحصن قلتيا مولاي الحصن تمتلكه. قال وسطوه، ولج فيه فوسطوه، وأخذنا الحصن في ساعة تلك، فجاء إلى الباب يريد النزول من الحصن، فكان معه جماعة وغلبة. فوكل به قوماً من أصحابه ومضى نزل في خيمته لحظة بقدر ما تفرق العسكر الذي كان معه، ثم ركب وقال لياركب فركبنا وطلعنا إلى الحصن، فجلس وأحضر ناطور الحصن يعرفه بما فيه، وأحضر بين يديه نساء وصبيان نصارى ويهود. فحضرت عجوز كردية فقالت لذلك الناطور رأيت ابني فلاناً؟ قالقتل ضربته نشابة. قاللتفابني فلان؟ قال وسطه الأمير فصاحت وكشفت رأسها وشعرها كالثقفة المندوفة، فقال لها الناطور اسكتي لأجل الأمير. قالتأي شيء بقي للأمير يعمل بي، كان لي ولدان قتلهما فدفعوها.

ومضى الناطور فاحضر شيخاً كبيراً مليح الشيبة يمشي على عصاتين سلم على صلاح الدين قالأي شيء هذا الشيخ؟ قالإمام الحصن. قالتقدم يا شيخ تقدم تقدم حتى جلس بين يديه قبض لحيته فمد يده قبض لحيته وأخرج سكينه مشدودة في بند قبائه وقطع لحيته من حكمته، فبقيت في يده مثل البرجم فقال له ذلك الشيخ يا مولاي بأي شيء أستوجب ان تفعل بي هذا الفعل؟ قالبعصيانك على السلطان. قالوالله ما علمت بوصولكم حتى جاء الناطور الساعة اعلمي واستدعاني. ثم رحلنا نزلنا على حصن آخر للأمير قفجاق يقال له الكرخيني أخذناه فوجدوا فيه خزانة ملاءم بالثياب خام مخيطة صدقة لفقراء مكة، وسبي من كان في الحصن من النصارى واليهود المعهادين، ونهب ما فيها نهب الروم، فالله سبحانه يتجاوز عنه.

اقف من هذا الفصل عند هذا الحد متمثلاً بقولي
دع ذكر من قتل الهوى فحديثهم ... فينا يشيب ذكره المولودا .
وأعود إلى ذكر شيء مما جرى لنا والإسماعيلية في حصن شيزر .

الإسماعيلية تهاجم شيزر

اجتاز في ذلك اليوم ابن عم لي يقال له أبو عبد الله هاشم رحمه الله فرأى رجلاً من الباطنية في برج من دار عمي معه سيفه وترسه والباب مفتوح وبراً منه خلق كثير من أصحابنا وما يجسر أحد أن يدخل إليه، فقال

ابن عمي لو احد من أولئك الوقوفادخل إليه، فدخل إليه، فما مهله الباطني ان ضربه فجرحه، فخرج وهو مجروح. فقال لأخر ادخل إليه، فدخل إليه فضربه الباطني فجرحه وخرج كما خرج صاحبه. فقال ابن عمييا رئيس جواد ادخل إليه. فقال له الباطنييا مؤخر أنت ليش ما تدخل؟تداحل لي الناس وأنت واقف، ادخل حتى تبصر. فدخل إليه الرئيس جواد فقتله. وهذا الجواد حكم في الثفاف رجل شجاع تقف. وما مر عليه إلا أعوام قليلة حتى رأته بدمشق سنة أربع وثلاثين وخمس مائة وهو علاف يبيع الشعير والتبن، وقد كبر حتى صار كالشن البالي يعجز عن دفع الفأر عن علفه، فما بال الرجال، فكنت أتعجب من أول أمره، عندما صار عليه آخر أمره، وما أحال من حاله طول عمره.

تأملات أسامة بشأن طول العمر

ولم أدر ان داء الكبر عام يعدي كل من اغفله الحمام. فلما توقلت ذروة التسعين وأبلاي مر الأيام والسنين، صرت كجواد علاف لا لجواد المتلاف. ولصقت من الضعف بالأرض، ودخل من الكبر بعضي ببعض، حتى انكرت نفسي وتحسرت على أمسي، وقلت في وصف حالي
لما بلغت من الحياة إلى المدى ... قد كنت أهواه تمنيت الردا
لم يبقى طول العمر مني منة ... ألقى بها صرف الزمان إذا اعتدا
ضعفت قواي وخاني الثقتان ... من بصري وسمعي حين شارفت المدى
فإذا نهضت حسبت أي حامل ... جبلاً وأمشي إن مشيت مقيدا
وأدب في كفي العصا وعهدتها ... في الحرب تحمل أسمراً ومهندا
وأبيت في لين المهاد مسهداً ... بلغ الكمال وتم عاد كما بدا
وأنا القائل بمصر أدم من العيش الراحة والدعة وما كان أعجل تقضيه وأسرعه
أنظر إلى صرف دهري كيف عودني ... بعد المشيب سوى عاداتي الأول
وفي تغاير صرف الدهر معتبر ... وأي حال على الأيام لم تحل
قد كنت مسعر حرب كلما حمدت ... أذكيته باقتداح البيض في القل
همي منازل الأقران أحسبهم ... فراشي فهم مني على وجل
أمضي على الهول من ليل وأهجم من ... سيل وأقدم في الهيجاء من أجل
فصرت كالغداة المكسال مضجعها ... على الحشايا وراء السجف والكلل
قد كدت أعفن من طول الثواء كما ... يصدئ الهند طول اللبث في الخلل
أروح بعد دروع الحرب في حلل ... من الديقي فيؤساً لي وللحلل
وما الرفاهة من رامي ولا أربي ... ولا التنعيم من شأنني ولا شغلي
ولست أرضى بلوغ المجد في رفه ... ولا العلى دون حطم البيض والأسل

وكت أظن ان الزمان لايلي جديده ولا يهي شديد، واني اذا عدت إلى الشام وجدت به أيامي كعهدي ما غيرها الزمان بعدي. فلما عدت كذبتني وعود المطامع، وكان ذلك الظن كالسراب اللامع. اللهم غفرًا هذه جملة اعتراضية عرضت، ونفثة هم اقضت ثم انقضت. أعود إلى المهم وأدع تعسف الليل المدهم، لوصفت القلوب من كدر الذنوب، فوضت إلى عالم الغيوم، علمت ان ركوب أخطار الحروب، لا يقص مدة الأجل المكتوب. فأني رأيت يوم تقاتلنا نحن والإسماعيلية في حصن شيزر معتبراً يوضح للشجاع العاقل والجبان الجاهل، ان العمر موقت مقدر، لا يتقدم أجله ولا يتأخر. وذلك اننا بعد فراغنا ذلك اليوم من القتال، صاح إنسان من جانب الحصن الرجال! وعندي جماعة من أصحابي معهم سلاحهم، فبادرنا إلى الذي صاح فقلنا ما بالك؟ ففاحس الرجال هاهنا. فجننا إلى إسطنبول خال مظلم فدخلنا فوجدنا رجلين معهما سلاحهما فقتلناهما. ووجدنا رجل من أصحابنا مقتولاً وهو على شيء فرفعناه، ووجدنا تحته رجلاً من الباطنية قد تسجى ورفع المقتول على صدره، فحملنا صاحبهنا وقتلنا الذي كان تحته ووضعنا صاحبهنا في الجامع بالقرب من ذلك المكان وفيه جراح عظيمة، ولا نشك انه ميت لا يتحرك ولا يتنفس. وأنا والله كنت أحرك رأسه على بلاط الجامع برجلي ولا نشك انه ميت. وكان المسكين يجتاز الأسطبل فسمع حساً فأدخل رأسه ليحقق السماع، فجذبه واحد منهم فضربوه بالسكاكين حتى ظنوا انه قد مات. فقضى الله سبحانه ان خيبت الجراح التي في رقبته وفي جسمه وعوفي وعاد من صحته كما كان عليه. فتبارك الله مقدر الأقدار وموقت الأجال والأعمار. وشاهدت ما يقارب ذلك وهو ان الإفرنج لعنهم الله أغاروا علينا ثلث الليل الآخر. فركبنا تتبعهم فمعنا عمي عز الدين رحمه الله من اتباعهم وقاهله مكيدة والإغارة تكون بالليل. وخرج من البلد رجالة خلفهم ما علمنا بهم. فوقع الإفرنج ببعضهم عند رجوعهم، قتلوا وسلم بعضهم. واصبحت أنا واقفاً في بندر قنين قرية عند المدينة فرأيت ثلاثة شخوص مقبلة أما إثنان كالناس، أما الأوسط فما وجهه كوجه الناس. فلما دنوا منا فأما الوسطاني منه قد ضربه إفرنجي بسيف في وسط انفه قطع وجهه إلى أذنيه، وقد استرخى نصف وجهه وصار على صدره. وبين النصفين من وجهه فتح قريب من شبر وهو يمشي بين رجلين، فدخل البلد فخاط الجراحي وجهه وداواه، فالتحم ذلك الجرح وعوفي وعاد إلى ما كان عليه إلى ان مات على فراشه، كان يبيع الدواب ويسمى ابن غازي المشطوب، وإنما سمي بالمشطوب بتلك الضربة. فلا يظن ظان ان الموت يقدمه ركوب المخاطر، ولا يأخره شدة حرر، ففي بقائي أوضح معتبر، فكم لقيت من الأهوال وتقحمت المخاوف والأخطار ولاقيت الفرسان وقتلت الأسود وضربت بالسيوف وطعنت بالرماح وجرحت بالسهم والجروح وأنا من الأجل في حصن حصين - إلى ان بلغت تمام التسعين، فرأيت الصحة والبقاء، كما قال صلى الله عليه وسلم كفى بالصحة داء. فأعقبت النجاة من تلك الأهوال، ما هو أصعب من القتل والقتال. وكان الهلاك في كنه الجيش اسهل من تكاليف العيش، استرجعت مني الأيام بطول الحياة سائر محبوب اللذات، وشاب كدر النكد صفو العيش الرغد فأنا كما قلت مع الثمانين عاث الدهر في جلدي ... وساءني ضعف رجلي واضطراب يدي فاعجب لضعف جد مضطرب ... كخط مرتعش الكفين مرتعد فاعجب لضعف يدي عن حملها قلماً ... من بعد حطم القنا في لبة الأسد

إن مشيت وفي كفي العصا ثقلت ... رجلي كأني أخوض الوحل في الجلد
فقل لمن يتمنى طول مدته ... هذي عواقب طول العمر والمدد
ضعفت القوة ووهنت، وتقضت بلهينة العيش وانتهت، ونكسني التعمير بين الأنام، وإلى الخمول يؤول
تسعر الظلام، حتى أصبحت كما قلت
تناستني الآجال حتى كأني ... درينة سفر بالفلاة حسير
ولما تدع مني الثمانون مئة ... كأني إذا رمت القيام كسير
أؤدي صلاتي قاعداً وسجودها ... علي إذا رمت السجود عسير
وقد أندرني هذه الحال أني ... دنوت رحلة مني وحن مسير

مدبح صلاح الدين

أعجزني وهن السنين عن خدمة السلاطين، فهجرت مغشى أبوابهم وقطعت أسبابي من أسبابهم واستقلت من
خدمتهم ورددت عليهم ما حولوني من نعمهم، لعلمي أن ضعف الهرم لا يقوى على تكاليف الخدم، وأن
سوق الشيخ الكبير لا ينفق على الأمير. ولزمت داري وجعلت الخمول شعاري ورضيت نفسي بالانفراد في
الغربة ومفارقة الأوطان والتربة، إلى أن تسكن نفاقها عن مرارتها وصبرت صبر الأسير على قده، والظمان
ذي الغلة عن ورده. مكاتبة مولانا الملك الناصر صلاح الدين، سلطان الإسلام والمسلمين، جامع
كلام الإيمان قانع عبدة الصليبان، رافع علم العدل والإحسان، محي دولة أمير المؤمنين أبو المظفر يوسف بن
أيوب، جعل الله الأسلم والمسلمين بطول بقائه، وأيدهم بماضي سيوفه وأرائه، واضفى عليهم وارف ظله كما
أصفى لهم من الأكدار موارد فضله برحمة نقبت عني في البلاد ودوني الحزن والسهل، بمضيعة من الأرض
لامال لدي ولا أهل. فأستنقذي من أنياب النوائب براية الجميل وحملني إلى بابه العالي بإنعامه الغامر الجزيل،
وجبر ما هاضه الزمان مني، ونفق على كرمه ما كسد عليه من سواه من علوسني، فغمري بغرائب
المرغائب، واهيني من إنعامه اهني المواهب حتى رعى لي بفاتن الكرم، ما اسلفت سواه من الخدم، فهو يعتد
لي بذلك ويرعاه رعاية من كأنه شاهد وراه، فعطاياه تطرقني وأنا راقد وتسري إلي وأنا محتسب قاعد، فأنا
من إنعامه كل يوم في مزيد، وإكرام كتكرمة الأهل وأنا أقل العبيد. امنني جميل رأيه حادث الحادثات،
وأخلف لي إنعامه ما سلبه الزمان بالنكبات المحجفات، وأفاض علي من نوافل فضله بعد تأدية فرضه وسنته،
ما يعجز الأعناق عن حمل أيسر منته. ولم يبقى لي جوده املاً أرجوا نيله، اقضي زماني بالدعاء به نهاره وليله،
والرحمة التي تدارك بها العباد، أحبي ببركتها البلاد، والسلطان الذي أحى سنة الخلفاء الراشدين، واقام
عمود الدولة والدين، والبحر الذي لا ينضب لكثرة الواردين مأوه، والجواد الذي لا يتقطع مع تتابع
الوافدين عطاؤه. فلا زالت الأمة من سيوفه في حمى منيع، ومن إنعامه في ربيع مريع. ومن عدله في أنوار
تكشف عنهم ظلم المظالم، وتكف بسطة يد المعتدي الغام، ومن دولته القاهرة في ظل وارف، وفي سعود
متتابع آنف في أثر سالف، ما تعاقب الليل والنهار، ودار الفلك الدوار
دعوت وقد أمن الحافظان ... وذو العرش ممن دعاه قريب

وقد قال سبحانه للعباد ... سلوئي فأني سميع مجيب
والحمد لله رب العالمين وصلواته على سيدنا محمد وعلى آله أجمعين، وحسبنا الله ونعه الوكيل..

الباب الثاني

أخبار ونوادر

وما بكم من نعمة فمن الله. قال أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ، غفر الله له ولوالديه
ولجميع المسلمين هذه طرف أخبار حضرت بعضها وحدثني بعضها من اتق به جعلتها إلحاقاً في الكتاب، إذا
ليست مما قصدت ذكره فيما تقدم، وابدأت منها بأخبار الصالحين رضي الله عنهم أجمعين .

أخبار الصالحين

بصيرة البصري

حدثني الإمام الخطيب سراج الدين أبو طاهر إبراهيم بن الحسين بن إبراهيم خطيب مدينة إسعرد بما في ذي
القعدة سنة اثنتين وستين وخمس مائة. قال حدثني أبو الفرج البغدادي قال شهدت مجلس الشيخ الإمام أبي عيد
الله محمد البصري ببغداد حضرته امرأة فقالت يا سيدي انك كنت ممن شهد في صداقي، وقد كتبت كتاب
المهر، وأسألك أن تفضل علي تقيم الشهادة بمجلس الحكم. فقال ما أفعل حتى تأتيني بحلاوة. فوقفت المرأة وهي
تظن انه يمزح بقوله. فقال ما أفعل حتى تأتيني بحلاوة. فمضت ثم عادت فأخرجت من جيبها من تحت الإزار
قرطاساً فيه حلاوة يابسة. فتعجب أصحابه من طلبه الحلاوة مع زهد ه وتعففه، فأخذ القرطاس وفتحه ورمى
بالحلاوة قطعة قطعة حتى فرغ القرطاس، ونظره فإذا هو كتاب صداق المرأة الذي فقدته. فقال لخذي صداقك
فهذا هو فاستعظم من حضره ذلك. فقال كلوا الحلال وقد فعلتم ذلك وأكثر منه.

سمع ابن قيس

حدثني الشيخ أبو القاسم الخضر بن مسلم بن قاسم الحموي بما يوم الاثنين سلخ ذي الحجة سنة سبعين
وخمس مائة فالقدم علينا رجل شريف من أهل الكوفة فحدثنا قال حدثني أبي قال كنت أدخل على قاضي القضاة
الشامي الحموي فيكرمني ويجلني فقال لي يوماً أنا أحب أهل الكوفة لشخص واحد منهم، كنت بحماة وأنا
شاب وقد توفي بما عبد الله بن ميمون الحموي رحمه الله. فقالوا لهاوص. فقال إذا أنا مت وفرغتم من جهازي
اخرجوني إلى الصحراء ويطلع إنسان إلى الرايبة التي تشرف على المقابر وينادي بي يا عبد الله بن القيس مات
عبد الله بن ميمون فاحضره وصلي عليه. فلما مات فعلوا ما أمرهم به. فأقبل رجلاً عليه ثوب خام ومترز
صوف من الجانب الذي ناد منه المنادي وجاء حتى صلى عليه، والناس يبتوا لا يكلمونه. فلما فرغ من

الصلاة انصرف راجعاً من حيث جاء، فتلاوموا إذ لم يتمسكوا به ويسألونه، فسعوا في إثره ففما تم ولم يكلمهم كلمة واحدة.

شهوة شيخ ماءت تتحقق

وقد حضرت ما يقارب ذلك في حصن كيفا. وكان في مسجد الخضر رجل يعرف بمحمد السماع له زاوية إلى جانب المسجد يخرج وقت الصلاة يصلي جماعة ويعود إلى زاويته وهو رجل من الأولياء فحضرتة وهو بالقرب من منزلي الوفاة فقال كنت اشتهي على الله تعالى ان يحضرنى شيخي محمد البستي. فما جمع له جهاز غسله وكفنه إلا وشيخه محمد البستي عنده فتولى غسله وخرج خلفه تقدمنا صلى عليه. ثم نزل في زاويته فأقام بها مدينة وهو يزورني وأنا أزوره، وكان رحمه الله عالماً زاهداً ما رأيت ولا سمعت مثله، كان يصوم الدهر ولا يشرب الماء ولا يأكل خبزاً ولا شيئاً من الحبوب، إما يفطر على رمانتين أو عنقود عنب أو تفاحتين ويأكل في الشهر مرة أو مرتين لقيمات من لحم مقلي. قتلته له يوماً يا شيخ أبا عبد الله كيف وقع لك ان لا تأكل خبزاً ولا تشرب ماء وأنت صائم أبداً؟ قال صمت فطويت فوجدتني أقوى على ذلك، فطويت ثلاثاً وقتنا جعل ما آكله كالميت التي تحل للمضطر بعد ثلث. فوجدتني أقوى على ذلك فتركت الأكل والشرب الماء فألقت النفس ذلك وسكنت إليه فاستمرت على ما أنا عليه. وكان بعض أكابر حصن كيفا قد عمل للشيخ زاوية في بستان جعله له فحضر عندي في شهر رمضان وقال قد جئت مودعاً. قتلوا زاوية التي قد أعدت والبستان؟ قال يا أخي ما لي حاجة فيهما ولا أقيم. وودعني ومضى رحمه الله، وذلك سنة سبعين وخمس مائة.

وهو المعرة يشعر بموت آخر في مكة

وحدثني الشيخ أبو القاسم خضر بن مسلم بن قسيم الحموي بحمارة في التاريخ المتقدم ان رجلاً كان يعمل في بستان محمد بن مسعر رحمه الله أتى أهله وهم جلوس على أبواب دورهم بالمعرة فقال سمعت الساعة عجباً! قالوا وما هو؟ قال لم يبي رجل معه ركوة طلب مني فيها فأعطيته فجدد وضوءه، أعطيته خيارتين فأبأ أن يأخذها. فقلت ان هذا البستان نصفه لي بحق عملي، ولمحمد بن مسعر نصفه بالملك. فقال أحج العام؟ قلت نعم قال لبارحة بعد انصرفنا من الوقفة مات وصلينا عليه. فخرجوا في أثره ليستفهموا منه فأروه على بعد لا يمكنهم لحاقه، فعادوا وورخوا الحديث فكان الأمر كما قال.

علي يداوي قيم مسجده

حدثني الأجل شهاب الدين أبو الفتح المظفر بن مسعود بن بختكين ابن سبكتكين مولى معز الدولة ابن بويه بالموصل في ثامن عشر شهر رمضان سنة خمس وستين وخمس مائة قال زار المقتضي بأمر الله أمير المؤمنين رحمه الله مسجد صندوديا بظاهر الأنبار على الفرات الغربي ومعه الوزير وأنا حاضر، فدخل المسجد وهو يعرف

بمسجد أمير المؤمنين علي رضوان الله عليه، وعليه ثوب دمياطي وهو متقلد سيفاً حلبيته حديد لا يدري انه أمير المؤمنين إلا من يعرفه. فجعل في قيم المسجد يدعوا للوزير، فقال الوزير ويحك أذع لأمر المؤمنين. فقال له المقتفي رحمه الله عليه عما ينفع، قل له ما كان المرض الذي في وجهه؟ وكان في وجهه سلعة قد غطت أكثر وجهه فإذا أراد الأكل سدها بمندبل حتى يصل الطعام إلى فمه. فقال القيم كنت كما تعلم وأنا أتردد إلى هذا المسجد من الأنبار، فلقيني إنسان فقال لو كنت تتردد إلى فلان يعني مقدم الأنبار، كما تتردد إلى هذا المسجد لأستدعي لك طبيباً يزيل هذا المرض من وجهك، فخامر قلبي من قوله شيء قد داق به صدري، فمت تلك الليلة فرأيت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه وهو في المسجد يقول ما هذه الحضرة؟ يعني حضرة في الأرض. فشكوت إليه ما بي، فاعرض عني، ثم راجعته وشكوت إليه ما قاله لي ذلك الرجل فقال أنت ممن يريد العجلة، ثم استيقظت والسلعة مطروحة إلى جانبي وقد زال ما كان بي. فقال المقتفي رحمه الله عليه. ثم قال ليتحدث معه وابصر ما يلتمسه واكتب به توقيعاً واحضره لأعلم عليه. فتحدث معه فقال أنا صاحب عائلة وبنات، وأريد في كل شهر ثلاثة دنائير فكنت عنه مطالعة وعنوانها الخادمقيم مسجد علي، فوقع عليها بما طلب وقال ليأرض ثبتها في الديوان. فمضيت ولم أقرأ منها سوى موقع له بذلك. وكان الرسم ان يكتب لصاحب المطالعة توقيع ويؤخذ منه ما فيه خط أمير المؤمنين. فلما فتحها الكاتب لينقلها وجد تحت قيم مسجد علي خط المقتفي أمير المؤمنين. صلوات الله عليه. ولو كان طلب أكثر من ذلك لوقع له به. النبي يرسل فقيراً إلى الملك شاه

وحدثني القاضي الإمام مجد الدين أبو سليمان داود بن محمد بن الحسن بن خالد الخالدي رحمه الله بظاهر حصن كيفا يوم الخميس ثاني وعشرين ربيع الأول سنة ست وستين وخمس مائة عن من حدثه ان شيخاً استأذن على خواجه برك رحمه الله. فلما دخل عليه رآه شيخاً مهيباً بهياً فقال من أين الشيخ؟ قال من غربة. قال ألك حجة؟ قال أنا رسول الله عليه الصلاة والسلام إلى الملك شاه. قال يا شيخ أي شيء هذا الحديث؟ قال ان اوصلني إليه بلغت الرسالة. وإلا فأنا لا أزول حتى اجتمع به وابلغه ما معي. فدخل الخواجه برك على السلطان فاعلمه بما قال الشيخ فقال أحضروه فلما حضر قدم للسلطان مسواكاً ومشطاً وقال له أنا رجل لي بنات، وأنا فقير لا اقدر على جهازهن وتزويجهن، وكل ليلة ادعو الله تعالى ان يرزقني ما اجهزهن به فمت ليلة الجمعة من شهر كذا ودعوت الله سبحانه وتعالى بمعونتي عليهن. فرئيت الرسول صلى الله عليه وسلم فيما يرى النائم فقال ليأنت تدعوا الله عز وجل ان يرزقك بما تجهز به بناتك؟ قلت نعم يا رسول الله. فقال لمضي إلى فلان وسماه بعز ملك شاه - يعني السلطان وقل له قال لك رسول الله عليه وسلم جهز بناتي. فقلت يا رسول الله ان طلب مني علامة ما أقول له؟ قال قل له بعلامة انك كل ليلة عند النوم تقرأ سورة تبارك. فلما سمع ذلك السلطان فقال هذه علامة صحيحة، وما اطع عليها غير الله تبارك وتعالى. فإن مؤدي أمرني ان اقرأها كل ليلة عند النوم وأنا افعل ذلك. ثم أمر له بكل ما اطلبه لتجهيز بناته وأجزل عطيته وصرفه.

وآخر إلى الوزير علي بن عيسى

ويشبه هذا الحديث ما سمعته عن ابي عبد الله محمد بن فاتك المقرئ قالو كنت أقرأ يوماً على ابي بكر بن مجاهد رحمه الله المقرئ ببغداد إذا ورد عليه القاضي ابي بكر محمد بن عبد الباقي بن محمد الأنصاري القرصي المعروف بقاضي المارستان انه قاللما حججت بينا أطوف بالبيت إذ وجدت عقداً من اللؤلؤ فشددته في طرف إحرامي. فبعد ساعة سمعت إنساناً ينشده في الحرم وقد جعل لمن يرد عليه عشرين ديناراً، فسألته علاماً ما ضاع له فاحبرني فسلمته إليه. فقال ليتجيء معي إلى منزلي لأدفع إليك ما جعلته لك. فقلت ما لي حاجت إلى ذلك، وما دفعته إليك ما جعلته لك. فقلت مالي حاجة إلى ذلك وما دفعته إلي بسب الجعالة، وأنا من الله بخير كثير. فقاللما تدفعه إلى الله عز وجل؟ فقلت نعم. فقالواستقبل بنا الكعبة وأمن على دعائي. فاستقبلنا الكعبة فقالالهم اغفر له وارزقي مكافأته، ثم ودعني ومضى. ثم اتفق اني سافرت من مكة إلى ديار مصر فركبت في البحر متوجهاً إلى المغرب. فأخذت الروم المركب وأسرت فيمن أسر فوقع في نصيب بعض القوم، فلم أزل أخدمه إلى أن دنت وفاته فأوصى بإطلاقي. فخرجت من بلد الروم فصرت إلى بعض بلاد المغرب فجلست أكتب على دكان خباز، وكان ذلك الخباز يعامل بعض تناة تلك المدينة. فلما كان في رأس الشهر جاء غلام ذلك الثاني إلى الخباز فقاللسيدي يدعوك لتحاسبه فاستصحبني معه فمضينا إليه فحاسبه على رقاعه. فلما رأى معرفتي في الحساب وخطي طلبني من الخباز فغير ثيابي وسلم إلي جباية ملكه وكانت له نعمة ضخمة، أخلى لي بيتاً في جانب داره. فلما مضت مديدة قال لييا أبا بكر ما رأيك في التزويج؟ قلتيا سيدي أنا لا اطيق نفقة نفسي فكيف اطيق النفقة على زوجة قالأنا أقوم عنك بالمهر والمسكن والكسوة وجميع ما يلزمك. فقلتالأمير لك فقاليا والدي إن هذه الزوجة فيها عيوب شتى - ولم يترك شيئاً من العيب في حلقة من رأسها إلى قدمها إلا ذكره لي وأنا أقولرضيت. وباطني في ذلك كظاهري. فقال ليالزوجة ابنتي. واحضر جماعة وعقد العقد. فلما كان بعد أيام قال لي هياً لدخول بيتك، ثم أمر لي بكسوة فاخرة ودخلت إلى دار فيها تجميل والآلات، ثم أجلس في المرتبة وأخرجت العروس تحت النمط فقامت لتلقيها. فلما كشفت النمط رأيت صورة ما رأيت في الدنيا أجهل منها، فهربت من الدار خارجاً، فلقبني الشيخ وسألني عن سب هروبي.. فقلتان الزوجة ما هي التي ذكرت لي فيها من العيوب ما ذكرت. فتبسم وقاليا ولدي هي زوجتك، وليس لي ولد سواها وإنما ذكرت لك ما ذكرت لئلا تستقل ما تراه فعدت وجلبت علي. فلما كان من الغد جعلت أتأمل ما عليها من حلي وجواهر الفاخر، فرأيت من جملة ما عليها العقد الذي وجدته بمكة فعجبت من ذلك واستغرفني الفكر فيه. فلما خرجت من البناء استدعاني وسألني عن حالي وقال جدع الحلال أنف الغيرة، فشكرته على ما فعله معي، ثم استولى علي الفكر في العقد ووصله إليه. فقال لي فيم تفكر. فقلت في العقد الفلاني فاني حججت في السنة الفلانية فوجدته في الحرم أو عقدا يشبهه. فصاح وقال أنت الذي رددت علي العقد قلت أنا ذاك. فقال ابشر فان الله قد غفر لي ولك، فاني دعوت الله سبحانه في تلك الساعة ان يغفر لي ولك وان يرزقي مكافأتك، وقد سلمت إليك مالي وولدي وما أظن اجلي إلا وقد قرب ثم أوصى الي ومات بعد مديدة قريه رحمه الله.

الشفاء بطرق غريبة

وحدثني الأمير سيف الدولة زكري بن قراجا رحمه الله قال دعانا شاهنشاه بجلب وهو زوج أخته . فلما اجتمعنا عنده نفذنا إلى صاحب لنا كنا نعاشره وننادمه خفيف الروح طيب العشرة فاستدعينا فحضر، فعرضنا عليه الشراب فقال أنا محتم امرني الطبيب بالحمية أياماً حتى تشق هذه السلعة وكان في مؤخر رقبته سلعة كبيرة، فقلنا وافقنا اليوم وتكون الحمية من غد.

ففعل وشرب معنا إلى آخر النهار، فطلبنا شاهنشاه شيئاً نأكله . فقال ما عندي شيء . فلاججناه حتى أجبنا إلى ان يحضر لنا بيضا نقله على المنقل فاحضر البيض أحضرنا صحنا وكسرنا البيض وافرغنا ما فيه في الصحن ووضعنا المقل على المنقل ليحمى، فأشرت إلى ذلك الرجل الذي في رقبته السلعة ان يشرب البيض، فرفع الصحن على فمه ليشرب بعضه فانساب جميع ما في الصحن في حلقه فشربه، وقلنا لصاحب الدار عوضنا عن البيض . فقال والله ما افعل فشربنا ثم افترقنا . فأنا في السحر في فراشي والباب يقرع، فخرجت جاريه تنظر من بالباب فإذا هو صديقنا ذلك . فقلت أحضره . فجاءني وأنا في فراشي فقال يا مولاي تلك السلعة التي كانت في رقبتي ذهبت وما بقي لها اثر . فنظرت موضعها فإذا هو كغيره من جوانب رقبته . فقلت أي شيء اذهبها قال الله سبحانه ما عرفت اني استعملت شيئاً ما كنت استعمله غير شرابي لذلك البيض النيء . فسبحان القادر المبلي المعافي . وكان عندنا في شيزر اخوان اسم الأكبر مظفر والآخر مالك بن عياض من أهل كفر طاب وهما تاجران يسافران إلى بغداد، وغيرها من البلاد، ومظفر أدركه قبلة عظيمة فهو منها في تعب، فسار في قافلة على المساوهِ إلى بغداد، فنزلت القافلة في حي من أحياء العرب فضيفوهم بطيور طبخوها لهم فتعشوا وناموا، فانتبه ابنه رفيقه الذي في جانبه وقال له أنا نائم أو مستيقظ قال مستيقظ لو كنت نائم ما تحدثت . قال تلك القبلة قد ذهبت وما بقي لها اثر . فنظر فإذا هو قد عاد كغيره إلى الصحة. فلما أصبحوا سألوا العرب الذين أضافوهم أي شيء أطعموهم. قالوا نزلتم بنا ودوابنا عازبة، فخرجنا أخذنا فراخ غربان طبخناها لكم. فلما وصلوا بغداد دخلوا المارستان وحكوا للمتولي المارستان حكايته، فنفذ حصل فراخ غربان أطعمها لمن به هذا المرض، فلم تنفعه ولا أثرت فيه. فقال تلك الفراخ التي أكلها كان زقها أبوها أفاعي لذلك كان نفعها. ومما يشاكل ذلك ان رجلاً أتى يوحنا بن بطلان الطبيب المشهور بالمعرفة والعلم والتقدم بالصنعة الطب وهو دكانه بجلب، فشكى إليه مرضه فرآه قد استحکم به الاستسقاء وكبر بطنه ودقت وتغيرت سحته. فقال لها ولدي ما لي والله فيك حيلة، ولا بقي الطب ينجح فيك فانصرف. ثم بعد مدة اجتاز به وهو في دكانه وقد زال ما به من مرض وضمير جوفه وحسنت حاله، فدعاه ابن بطلان فقالما أنت الذي حضرت عندي من مدة وبك الاستسقاء وقد كبر بطنك ودقت رقبتك وقلت لك ما لي فيك حيلة؟ قال بلى قالماذا داويت حتى زال ما بك؟ قالوالله ما تداويت بشيء، أنا رجل صعلوك ما لي شيء ولا لي من يدور بي سوى والدي، عجوز ضعيفة كان لها في دين خل، فكانت كل يوم تطعمني منه بخبز. فقال له بطلان بقي من الخل شيء؟ قال نعم قالامشي معي اربي الدن الذي فيه الخل. فمشى بين يديه إلى البيت أوقفه على دان الخل. فأفرع ابن بطلان ما كان فيه من الخل فوجد في أسفله افعين قد قهرأنا. فقال لها بني ما كان يقدر يداويك بخل فيه افعيان حتى تبرأ إلا الله عز وجل. وكان

ابن بطلان إصابات عجيبة في الطب. فمن ذلك ان رجلاً أتاه وهو في دكانه بجلب، والرجل قد انقطع كلامه فلا يكاد يفهم منه إذا تكلم. فقال لهما صنعتك؟ قالاً أنا مغربل. فقال احضر لي نصف رطل خل حاذق. فأحضره. فقالا شربه. فشربه لحظة فذرعته القيء، فتقيأ طيناً كثيراً في ذلك الخل، فانفتح حلقه واستوى كلامه. فقال ابن بطلان لابنه وتلامذته تداووا بهذا الدواء أحد فتقتلوه. هذا كان قد علق بالمريء من غبار الغريلة تراب ما كان يخرج إلى الخل. وكان ابن بطلان ملازماً لخدمة جدي الأكبر ابي المتوج مقلد بن نصر بن منقذ. فظهر في جدي الأكبر ابي المتوج مقلد بن نصر بن منقذ. فظهر في جدي ابي الحسن علي بن المقلد بن نصر بن منقذ رحمه الله وضح وهو صبي صغير، فافلق ذلك اباه وأشفق عليه من البرص، فاحضر ابن بطلان وقال لها بصر ما قد ظهر في جسم علي. فظفروه وقال أريد خمسمائة دينار حتى أداويه وأذهب هذا عنه. فقال له جديلو كنت داويت علياً ما كنت رضيت لك بخمسمائة دينار. فلما رأى الغضب من جدي قاليا مولاي أنا خادمك وعبدك وفي فضلك، ما قلت ما قلته إلا على سبيل المزاح، وهذا الذي بعلي بقى الشباب، وإذا أدرك ذهب عنه، فلا تحمل منه همماً ولا يقول لك سوايانا أداويه ويتسوق عليك، فهذا يزول عند بلوغه. فكان كما قال. وكان في حلب امرأة من وجوه نساء حلب لها برة

لحقتها برد في رأسها فكانت تعمل عليه القطن العتيق والقلنسوة والمخملة والمناديل حتى تصير على رأسها عمامة كبيرة وهي تستغيث من البرد، فأحضرت ابن بطلان وشكت إليه مرضها فقالحصلي في غد خمسين مثقالاً من كافور رياحي عارية أو مكري من بعض الطيبين، فهو يعود إليه بأسره. فحصلت له الكافور، ثم أصبح القى كل ما على رأسها وحشا شعرها بذلك الكافور ورد على رأسها ما كان عليه من الدثار وهب تستغيث من البرد، فنامت لحظة وانتهت تشكو الحر والكرب في رأسها حتى بقي على رأسها قناع واحد، ثم نفص شعرها من ذلك الكافور وذهب عنها البرد وصارت تتقنع بقناع واحد. حقها برد في رأسها فكانت تعمل عليه القطن العتيق والقلنسوة والمخملة والمناديل حتى تصير على رأسها عمامة كبيرة وهي تستغيث من البرد، فأحضرت ابن بطلان وشكت إليه مرضها فقالحصلي في غد خمسين مثقالاً من كافور رياحي عارية أو مكري من بعض الطيبين، فهو يعود إليه بأسره. فحصلت له الكافور، ثم أصبح القى كل ما على رأسها وحشا شعرها بذلك الكافور ورد على رأسها ما كان عليه من الدثار وهب تستغيث من البرد، فنامت لحظة وانتهت تشكو الحر والكرب في رأسها حتى بقي على رأسها قناع واحد، ثم نفص شعرها من ذلك الكافور وذهب عنها البرد وصارت تتقنع بقناع واحد.

وقد جرى لي بشيزر ما يقارب ذلك، لحقني برد شديد وقشعريرة من غير حمى وعلي الثياب الكثيرة والفرو، ومتى تحركت في جلوسي ارتعدت وقام شعر بدني وتجمعت. فأحضر الشيخ ابي الوفاء تيمماً الطيب فشكوت إليه ما أجد. فقال احضر لي بطيخة هندي. فأحضرت فكسرها فقاليكل منها استطعت. قلت يا حكيم أنا في الموت من البرد والرمال بارد، كيف آكل هذه مع بردها؟ قال لكل كما أقول لك. فأكلت، فما انتهى أكلي منها حتى عرقت وزال ما كنت أجده من البرد. فقال ليالذي كان بك من غلبة الصفراء ما كان من برد حقيقي.

وقد تقدم ذكر شيء من غريب الأحلام، وقد أردت في كتاب المترجم بكتاب النوم والأحلام من ذكر النوم والأحلام وما قيل فيها وفي أوقات الرؤيا وفي أقوال العلماء فيها، واستشهدت على أقوالهم بما ورد فيها من أشعار العرب ووسعت الشرح واشبعت فيه المعنى، فما حاجة إلى ذكر شيء منه ها هنا لكنني ذكرت هذا الخبر واستظرفته فأوردته، كان لجدي سديد الملك ابي الحسن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ رحمه الله جارية يقال لها لؤلؤة ربت والدي مجد الدين أبا سلامة مرشد بن علي رحمه الله. فلما كبر وانتقل عن الدار والده انتقلت معه فرزقني، فربيتي تلك العجوز إى ان كبرت وتزوجت وانتقلت من دار والدي رحمه الله فانتقلت معي، ورزقت الأولاد فربيتهم وكانت رحمها الله من النساء الصالحات صوامة قوامة، وكان يلحقها القولنج وقتاً بعد وقت، فلحقها يوماً من الأيام واشتد بها حتى غاب ذهنها وآيسوها، فبقيت ذلك يومين وليلتين، ثم أفاق وقاتل الله إلا الله! ما أعجب ما كنت فيه! لقيت أمواتنا جميعهم وحدثوني بالعجب وقالوا لي في جملة ما قالوا إن هذا القولنج ما يعود يلحقك. فعاشت بعد ذلك بمدة الطويلة ولم يلحقها قولنج. وعاشت حتى قاربت المائة سنة، وكانت محافظة لصلواتها رحمها الله فدخلت إليها في بيت أفردته لها من داري وبين يديها طست وهي تغسل منديلاً لصلوات. فقلتما هذا يا أمي؟ قالتيا بني قد مسكوا هذا المنديل وأيديهم زفرة من الجبن وكما غسلته فاحت منه رائحة الجبن. قلتأريني الصابون التي تغسلين بها. فأخرجتها من المنديل فإذا هي قطعة جبن، وهي تظن أنها صابون، وكلما عركت ذلك المنديل بالجبن فاحت روائحها. قلتيا أمي هذه جبنة! ما هي صابونة. فنظرتما وقاتلصدقت يا بني ما ظننتها إلا صابوناً، فتبارك الله أصدق القائلين " ومن نعمه ننكسه في الخلق. " الإطالة تجلب الملالة والحوادث والطوارئ أكثر من ان تحصر والرغبة إلى الله عز وجل في الستر والعافية فيما بقي من الحياة، والرحمة والرضوان عند موافاة الوفاة، فانه سبحانه اكرم مسؤول واقرب مأمول.

الحمد لله وحده وصلواته على سيدنا محمد وعلى آله وسلامه .

الباب الثالث

أخبار الصيد

توكلت على الله تعالى

والله مني جانب لا أضيعه ... والله مني والبطالة جانب

قد ذكرت من أحوال الحرب وما شاهدته من الوقعات والمصافات والأخطار حضري ذكره ولم ينسنيه الزمان ومره، فإن العمر طال ولزمت الانفراد والاعتزال، والنسيان من ارث ما تقدم من أبينا آدم صلى الله عليه وسلم. وأنا ذاكر فصلاً فيما حضرته وشاهدته من الصيد والقنص والجوارح. فمن ذلك ما حضرته مع ملك الأمراء أتاك زكي بن آق سنقر رحمه الله، ومن ذلك ما حضرته بدمشق مع شهاب الدين محمود بن تاج الملوك رحمه الله، ومن ذلك ما حضرته بمصر، ومن ذلك ما حضرته مع الملك العادل نور الدين ابي

المظفر محمود بن أتابك زنكي رحمه الله، ومن ذلك ما حضرته بديار بكر مع الأمير فخر الدين قرا ارسلان بن داود بن ارتق رحمه الله.

الصيد بسورية والجزيرة ومصر

الصيد في سورية

فأما ما كان في شيزر فكان مع الوالد رحمه الله، وكان مشغولاً بالصيد لهجاً به ويجمع الجوارح، وما يستكثر ما يغرمه عليه لفرجته، فإنه كان نزهته فليس له شغل سوى الحرب وجهاد الأفرنج ونسخ كتاب الله عز وجل عند فراغه من أشغال أصحابه، وهو رحمه الله صائم الدهر مواظب على تلاوة القرآن. فكان الصيد كما جاء في الخبر روح القلوب تعي الذكر. فما رأيت قط مثل صيده وتربيته. وقد شاهدت صيد ملك الأمراء أتابك زنكي رحمه الله، وكان له جوارح كثيرة، فرأيتته ونحن نسير على الأنهار فيتقدم البازدارية بالبنزة ترميها على الطيور الماء وتدق الطبول كجاري العادة فتصيد منها ما تصيد وتخطى ما تخطى وورائهم الشواهين الكوهية على أيدي البازدارية. فإذا اصطادت البنزة وأخطأت أرسلوا الشواهين الكوهية على الطيور وقد أبعدت دشب خبز فتلحق وتصيد، وترسل على الحجل في طلوعها في سفح الجبل فتصيد، فإنها من سرعة الطيران على صفة عجيبة. وشاهدت يوماً ونحن في المغرقة بظاهر الموصل نسير في بادنجان وبين يدي أتابك بازيار على يد باشق، فطار ذكر دراج فارسله عليه فأخذه ونزل. فلما صار في الأرض فرط الدراج من كفه وطار. فلما ارتفع انتقل الباز من الأرض أخذه ونزل وقد ثبتته. ورأيتته وهو في صيد الوحش دفعات، إذا اجتمعت الحلقة واجتمع فيها الوحش شيء رموه، وكان من أيرمي الناس، فكان إذا دنا منه الغزال رماه، فنزاه كأنه قد عثر فيقع ويدبح، وكان أول غزال يضربه في كل صيد أحضره ينفذه لي مع غلام من غلماناه وأنا معه. وشاهدته وقد اجتمعت الحلقة ونحن في أرض نصيين على الهرماس وقد ضربوا الخيام، فوصل الوحش إلى الخيام، فخرج الغلمان بالعصي والعمد، فضربوا منها شيئاً كثيراً، واجتمعوا في حلقة ذيب فوثب في وسطها على غزال أخذه وبرك عليه فقتل وهو عليه. وشاهدته يوماً ونحن بسنجار وقد جاءه فارس من أصحابه فقالها هنا ضبعة نائمة! فسار ونحن معه إلى واد هناك، والضبعة نائمة على صخرة في سفح الوادي، فترجل أتابك ومشى حتى وقف مقابلها وضربها بنشابة رماها إلى أسفل الوادي، ونزلوا وجاءوا بها إلى بين يديه وهي ميتة. ورأيتته أيضاً بظاهر سنجان وقد جلوا أرنباً. فأمر فاستدارت الخيل حولها وأمر غلاماً خلفه يحمل الوشق كما يحمل الفهد، فتقدم أرسله على الأرنب فدخلت بين قوائم الخيل وما تتمكن منها. وما كت رأيت الوشق قبل ذلك يصيد. ورأيت الصيد بدمشق أيام شهاب الدين محمود بن تاج الملوك للطير والغزلان وحمير الوحش واليحمير، فرأيتته يوماً وقد دخلنا إلى شعراء بانياس وفي الأرض عشب عظيم، فتصدينا كثير من اليحمير، وضربت الخيام حلقة ونزلنا، فقام من وسط الحلقة يحمور كان نائماً في العشب فأخذ في وسط الخيام. ورأيت ونحن عائدون رجلاً قد رأى سنجاباً في شجرة فأعلم به شهاب الدين فجاء وقف تحته ورماه مرتين أو ثلاثاً فما أصابه، فتركه وسار شبه المغناط الذي لم يصبه. فرأيت رجلاً من الأتراك جاء رماه فوسط

النشابة فيه، فاستخرت يدها وبقي متعلقاً برجليه والنشابة فيه حتى هزوا الشجرة فوقه، ولو كانت تلك النشابة في ابن آدم كان مات لوقتته، فسبحان خالق الخلق.

الصيد في مصر

ورأيت الصيد في مصر، كان للحافظ لدين الله عبد المجيد ابي ميمون رحمه الله جوارح كثيرة من البزاة والصقور والشواهين البحرية، فكان لهم زمام يخرج بهم في الجمعة يومين وأكثرهم رجالة على أيديهم الجوارح، فكانت أركب يوم خروجهم إلى الصيد لأتفرج بنظر صيدهم، فمضى الزمام إلى الحافظ وقال لمان الضيف فلاناً يخرج معنا - كأنه يستطلع أمره في ذلك. فقالا خرج معه يتفرج على الجوارح. فخرجنا يوماً ومع بعض البازيارية باز مقرنص بيت احمر العينين فرأينا كراكي. فقال له الزمام تقدم ارمي عليها الباز الأحمر العينين. فتقدم رماه وطارت الكراكي فلحق منها واحداً على بعد منا فحطه. فقلت للغلام لي على حصان جيد أدفع الحصان إليه وانزل أغرز منقار الكراكي في الأرض وأكفنه واطرك رجليه تحت رجليك إلى ان نصلك. فمضى وعمل ما قلت له، ووصل البازيار ذبح الكراكي واشبع الباز. فلما دخل الزمام حدث الحافظ بما جرى وما قلته للغلام وقاليا مولانا حديثه حديث صياد. قالوا أي شيء شغل هذا إلى القتال والصيد؟ وكان معهم صقور يرسلونها على البلاشيب وهي طائفة، فإذا رأى البلشوب الصقر دار وارتفع، والصقر يدور في جانب آخر حتى يرتفع على البلشوب، ثم يتقلب عليه يأخذه. وفي تلك البلاد طيور يسمونها البج مثل النحام يصيدونها أيضاً، وطيور الماء في مقطعات النيل سهلة الصيد، والغزال عندهم قليل بل في تلك البلاد بقرب بني إسرائيل وهي بقر صفر قرونها مثل قرون البقر وهي أصغر من البقر تعدو عدواً عظيماً، وتخرج لهم من النيل دابة يسمونها فرس البحر مثل البقرة الصغيرة عيناها صغيرتان وهي جرداء مثل الجاموس ولها أنياب طوال في فكها الأسفل وفي فكها الأعلى خروق لأنيابها تخرج رؤوسها من تحت عينيها وصياحها مثل صياح الخنزير، ولا تبرح في بركة لها ماء وتأكل الخبز والحشيش والشعير.

الصيد في عكا

وكنيت قد مضيت مع الأمير معين الدين رحمه الله إلى عكا إلى عند ملك الإفرنج فلك بن فلك فرأينا رجل من الجنوبية وقد وصل من بلاد الإفرنج ومعه باز كبير مقرنص يصيد الكراكي ومعه كلبة صغيرة إذا أرسل الباز على الكراكي عدت تحته، فإذا أخذ الكراكي وحطه عضته فلا يقدر على الخلاص منها. وقال لنا ذلك الجنوبيان الباز عندنا إذا كان ذنبه ثلاث عشر ريشة اصطاد الكراكي. فعددنا ذنب ذلك الباز فكان كذلك. فطلب الأمير معين الدين رحمه الله فأخذه من ذلك الجنوبي هو والكلبة وأعطاه للأمير معين الدين فجاء معنا، فرأيت في الطريق يثب على الغزلان كما يثب إلى اللحم، ووصلنا به إلى دمشق، فما طال عمره بها ولا صاد شيئاً ومات.

في حصن كيفا

وشاهدت الصيد في حصن كيفا مع الأمير فخر الدين قرا أرسلان بن داود رحمه الله. وهناك الحجل والزرخ كثير والدراج، فأما طير الماء فهو في الشط وهو واسع ما يتمكن الباز منها، وأكثر صيدهم الأراوي ومعزى الجبل يعملونها لها شبكاً ويمدونها في الأودية ويتردون الأراوي فتقع في تلك الشبك وهي كثيرة عندهم وقرية المتصيد وكذلك الأرانب.

مع نور الدين

وشهدت الصيد مع الملك العادل نور الدين رحمه الله فحضرته ونحن بأرض حماة وقد جلوا له أرانباً فضربها بنشابة كشماء، وقامت وسبقت إلى محجر دخلته فركضنا خلفها، ووقف عليها نور الدين وناولني الشريف السيد بهاء الدين رحمه الله رجلها قد قطعت النشابة من فوق العرقوب وشقت جوفها قرنة النصلة فوق وقع منها بيت الولد وسبقت بعد هذا وانجحرت، فأمر نور الدين بعض الوشاقية. نزل وقلع خفافه ودخل خلفها وما وصل إليها، وقلت للذي معه بيت الأولاد وفيه خرنقانشقه واطمرهم بالتراب ففعل، فتحركوا وعاشوا. وحضرته يوماً وقد أرسل كلبة على ثعلب ونحن على قرى حصار بأرض حلب فركض خلفه وأنا معه، فلحقت الكلبة وأخذت ذنب الثعلب فرجع إليه برأسه فعض خيشومها، فصارت الكلبة تعوي ونور الدين يضحك، ثم خلاها وانجحر، فما قدرنا عليه. وجاءه يوماً ونحن ركاب تحت قلعة حلب من شمالي البلد باز فقال لنجم الدين أبي طالب بن علي كرد رحمه اللهقل فلان يعني ياخذ هذا الباز يلعب به. فقال ليقلت ما أحسن له. فقال نور الدينانتم بالصيد ما كنتم تزالون، ما تحسن تصلح للبا؟ قلتما كنا نصلحها نحن كان لنا باز يارية وغلما ن يصلحونها ويتصيدون بها قدامنا، وما أخذت الباز.

والد أسامة صيادا

شاهدت من الصيد مع هؤلاء الأكبر شيئاً كثيراً ما اتسع لي الوقت لذكره مفصلاً وكانوا قادرين على ما يحاولونه من صيد وآله وغيره، وما رأيت مثل صيد والذي رحمه الله، فما أدري كنت أراه بعين الخبة كما قال القائلوكل ما يفعل الخبواب محبوب. ما أدري أكان نظري فيه على تحقيق، وأنا أذكر من شيئاً من ذلك ليحكم فيه من يقف عليه. وذلك ان والذي رحمه الله كان قد فرغ زمانه لتلاوة القرآن والصيام والصيد في نهاره، وفي الليل ينسخ كتاب الله تعالى، كان قد نسخ ستاً وأربعين ختمة بخطه رحمه الله منها ختمتان بالذهب جميع القرآن، ويركب إلى الصيد يوماً ويستريح دوماً وهو صائم الدهر. ولنا بشيرز متصيدانمتصيد للبحل والأرانب في الجبل قبلي البلد ومتصيد لطير الماء والدراج والأرانب والغزلان على النهر في الأزوار من غربي البلد. وكان يتكلف في تسير قوم من أصحابه إلى البلاد لشرى البازة، حتى أنه انفذ إلى القسطنطينية احضر له منها بازة، وحملوا الغلمان معهم من الحمام ما ظنوا انه يكفي البزاة التي معهم فغير عليهم البحر وتعوقوا حتى فرغ ما معهم من طعم البزاة، فاضطروا إلى أن صاروا يطعموا البزاة لحم

السّمك، فأثر ذلك في أجنحتها صار ريشها ينكسر ويتقصف. فلما وصلوا بها إلى شيزر كان فيها بزاة نادرة. وفي خدمت الوالد بازيار طويل اليد في إصلاح البزاة وعلاجها يقال له غنائم، فوصل أجنحتها واصطاد بها وقرنص بعضها عنده.

مصايد البزاة

وكان أكثر ما يستدعي البزاة ويشترىها من وادي ابن الأحمر بالغلاء فأحضر قوماً من أهل الجبل القريب من شيزر من أهل بشيلا ويسماخ وحلة عار وتحديث معهم في أن يعملوا في مواضعهم مصايد للبزاة ووهبهم وكساهم، فمضوا وعملوا بيوت الصيد، فاصطادوا بزاة كثيرة فراخاً ومقرنصة وزرارق، فحملوها إلى الوالد وقالوا يا مولانا نحن قد بطلنا معاشنا وزراعتنا في خدمتك، ونستهي أن تأخذ منا كل ما نصيده وتقرر لنا ثمناً نعرفه لا تجاذب فيه. فقرر ثمن الباز الفرخ خمسة عشر ديناراً، وثن زرق الفرخ نصفها وثن الباز المقرنص عشرة دناني وثن الزرق المقرنص نصفها، وانفتح للجبلين أخذ الدنانير بغير كلفة ولا تعب. وإنما يعمل له بيتاً بحجارة وعلى قدر خلقته، ويغطيه بعيدان ويسترها بقش وحشيش ويجعل نافذة، ويأخذ طير حمام يجمع رجليه على قضيب ويشدها إليه ويخرجه من تلك النافذة، يحرك العود فيتحرك الطير ويفتح اجنحته، فيراه الباز ينقلب عليه يأخذه، فإذا أحس به الصياد جذب القضيب إلى النافذة ومد يده قبض ورجلي الباز وهو قابض لطير الحمام، وأنزله إليه وخيط عينيه. ويصبح من الغد يصلنا به، يأخذ ثمنه ويعود إلى بيته بعد يومين. فكثر الصيادون وكثرت البزاة حتى صارت عندنا مثل الدجاج. فيها ما يتصيد به وفيها ما يموت على الكنادر من كثرتها. وكان في خدمة الوالد بازيار وصقارون وكلازمية، وعلم قوماً من مماليكه إصلاح البزاة فمهرها فيها. وكان يخرج إلى الصيد ونحن أولاده معه في أربعة رجال ومعنا غلماننا وجنائبنا وسلاحنا. فأنا ما كنا نأمن من الفرنج لقرههم منا، ويخرج معنا بزاة كثيرة وما حولها ومعها صقاران وفهدان وكلازبيان، مع أحدهما كلاب سلوقية ومع الآخر كلاب زغارية، فيوم خروجه إلى الجبل لصيد الحجل وهو بعيد من الجبل يقول لنا إذا خرج إلى طريق الجبلتفرقوا، كل من عليه قراءة يقرأها. ونحن أولاده حفاظ القرآن. فنتفرق نقرأ حتى يصير إلى مكان الصيد يأمر من يستدعينا فبأسأنا كم قرأ كل واحد منا فإذا أخبرناه يقولنا قرأت مائة آية أو نحوها، وكان رحمه الله يقرأ القرآن كما أنزل. فإذا صرنا في المتصيد أمر الغلمان فيفرق بعضهم مع البازيارية، فكيف طارت الحجل كان في ذلك الجانب باز يرسل عليه ومعهم من مماليكه وأصحابه أربعون فارساً أخبر الناس بالصيد، فلا يكاد يطير طير أو يثور أرنب ولا غزال لإصدناه، وننتهي في الجبل نصيد إلى العصر ثم نعود إلى البلد بعد عتمة. فإذا ركبنا إلى طير الماء والدراج كان ذلك يوم فرجتنا تقع في الصيد من باب المدينة ثم نصل إلى الأزوار فيقف الفهود والصقور براً من الزور وندخل إليه بالبزاة، فإن طارت دراجة أخذها الباز، وإن قفرت أرنب أرسلنا عليها بعض البزاة، فإن أخذها وإلا خرجت عند الفهود أرسلوا عليها، وإن قفز غزال خرج إلى الفهود أرسلوا عليه، فإن أخذ وإلا أرسلوا عليه الصقور فما يكاد يفلت منا صيد إلا بفسحة الأجل. وفي الأزوار خنازير كثيرة تخرج فركض عليها

ونقتلها فيكون فرحنا بقتلها أكثر من فرحة الصيد. وكن له ترتيب في الصيد كأنه ترتيب الحرب والأمر المهم لا يشتغل أحد بمحدث مع صاحبه ولا لهم إلا التبختر في الأرض لنظر الأرنب أو الطير في أوكارها.

الأرمن يرسلون بزاة

وكان قد صار بيننا وبين بني روبال - تروس ولاون لأرمن من أصحاب المصيصة وانطراطوس واذنة والدروب - مصادقة ومكاتبة أكبر أسبابها رغبته في البزاة او ما حوها على أيدي رجالة أرمن بازيارية وينفذون الكلاب الرغارية، وينفذ لهم هو الحصن والطيب ومن كسوة مصر، فكان يجيئنا من عندهم بزاة ملاح نادرة فأجتمع عندنا بعض السنين بزاة قد جاءت من الدروب فيها باز فرخ مثل العقاب وبزاة دونه. وجاءنا من الخيل عدة بزاة فيها باز كأنه صقر عريض فرخ ما يلحق بتلك البزاة، والبازيار غنائم يقولما في هذه البزاة كلها مثل هذا الباز اليحشور ما يترك شيئاً إلى يصيده ونحن لا نصدقه. ثم أصلح ذلك الباز فكان كما ظن فيه من أفره البزاة واطيرها واشطرها، وقرنص عندنا وخرج من القرناص أجود مما كان. وعمر ذلك الباز وفرض عندنا ثلاثة عشر سنة. فكان قد صار كأنه من أهل البيت يصطاد للخدمة لا لما جرت به عادة الجوارح أن يصيدوا لنفوسهم. وكان مقامه عند الوالد رحمه الله لا يتركه عندا البازيار إنما يحمل الباز في الليل ويجوعه حتى يصطاد به، وذلك الباز كان يكفي من نفسه ويعمل ما يراد منه. فكانا نخرج إلى صيد الحجل ومعنا عدة بزاة فيدفعه الوالد إلى بعض البازيارية ويقولاعتزل به ولا ترسله بالحملة وتسير في الجبل فكلما خلوا أبصروا حجلة لا بدة من شجرة قد أعلموه بما يقول هاتوا اليحشور. ساعة يقيم يده له قد طار من على يد البازيار وقع على يده بغير دعو، ثم يستشرف برأسه ورقبته فيقف على الحجلة النائمة ويرميها بقضيب في يده فطير ويرسل عليها اليحشور فيأخذها في عشرة أذرع، ثم يقول للبازيار أشبعه فيقول لهاعترل به. فإذا رأوا حجلة أخرى لا بدة عمل بها ذلك، حتى يصيد خمس أو ست حجلات - كذا يأخذها في عشرة أذرع، ثم يقول للبازيار أشبعه فيقول لها مولاي ما تدعه نتصيد به؟ يا بني معنا عشرة بزاة نتصيد بها وهذا قد أصاد، هذه الاطلاق تقطع عمره. فيشبعه ويعترل به البازيار فإذا أنهينا في الصيد وأشبعنا الزاة وحططناها على الماء شربت واستحمت، واليحشور على يد البازيار، فإذا استقبلنا البلد راجعين ونحن في الجبل قاهات اليحشور حمله على يده وسار، إن طارة حجلة من بين يديه أرسله عليها صاها حتى يصيد عشرة اطلاق أو أكثر قدر ما يطير له من الحجل، وهو شعبان لا يحيط منسرة في مذبح حجلة ولا يذق دمها. فإذا دخلنا الدار قاهاتوا طاسة ماء، فجاءوا بطاسة فيها ماء فقدمها إليه وهو على يده رحمه الله فيشرب منها، وإن كان يريد يستحم خضخض منسره في الماء فيلدري انه يريد يستحم، فيأمر بإحضار جفنه كبيرة فيها ماء ويقدمها ليها، فيطير ينزل في وسطها ويدف في الماء حتى يكتفي من السباحة ثم يطلع فيحطه على قفاز خشب قد عمل له كبير، ويقرب منه منقل النار، فيتمشق ويتدهن حتى ينشف من الماء، ثم يضع له فرواً مطويّاً فينزل إليه ينام عليه، فلا يزال بيننا على ذلك الفرو نائماً حتى يتهرول الليل ويريد الوالد يدخل إلى دار الحرم فيقول لأحدنا أحمله فيحمل كما هو نائم على الفرو حتى يحط إلى جانب فراش الوالد رحمه الله. وكان من عجائب هذا الباز وعجائبه كثيرة وأنا أذكر منها ما يحضرنى ذكره فإن الأمد قد طال وأنستني

السنون كثيراً من أحواله، إن كان في دار الوالد حمام وطيور ماء خضر وأناثها وبيضانيات من التي تكون بين البقر تلتقط الذبان في الدار، وكان يدخل الوالد وهذا الباز على يده يجلس على دكة في الدار والباز على قفاز إلى جانبه فلا يطلب شيئاً من تلك الطيور ولا يثب إليها، ولا كأنه مما جرت عادته بصيدها. وكانت المياه تكثر في ظاهر شيزر في الشتاء فيصير برأ من سورها نقاع كثير ماء وفيها الطيور، فيأمر الوالد البازيار وغلاماً معه يخرج إلى قريب من تلك الطيور، ويأخذ اليحشور على يده ويقف به على الحصن يريه الطيور وهو شرقي البلد والطيور غربيها، فإذا أبصرها أرسله فينزل يشف على البلد حتى يخرج منه إلى الطيور، فيدق له البازيار الطبل فنطير الطيور فيصيد منها وبينها وبين موضع أرسل منه مسافة بعيدة. وكنا نخرج إلى صيد طير الماء والدراج ونرجع بعد عتمة نسمع صوت الطيور في خلجانكبار بالقرب من البلد. فيقول الوالدات اليحشور، فيأخذه وهو شعبان ويتقدم إلى الطيور يدق الطبل حتى تطير الطيور ثم يرميها عليها. فإن أصاد وقع بيننا نزل إليه البازيار ذبح في رجله ورفعها، وإن لم يصد وقع على

كتاب : كتاب الاعتبار

المؤلف : أسامة بن منقذ

أكناف النهر فما نراه وما ندري أين وقع، فنخليه ندخل إلى البلد. ويصبح البازيار من سحر يخرج إليه يأخذه ويطلعه إلى الحصن إلى عند الوالد رحمه الله. ويقول له يا مولاي قد صقل هذا الصقيع قفاه طوال الليل، وقد أصبح يقط البلاذ فاركب ابصر أيش يعمل اليوم! وما كان يفوت هذا الباز شيء من الصيد من السمانة إلى الوز السمند والأرنب، وكان البازيار يشتهي أن يصيد به الكراكي والخرجل ما يتركه الوالد ويقول للخرجل والكراكي تصيدها بالصقور. وكان هذا الباز قد قصر عما نعهده من صيد سنة من السنين حتى أنه كان إذا أرسل وأخطأ لا يجيء إلى الدعو وهو عاجز ولا يستحم ولا ندري ما به، ثم صلح عما كان من تقصيره وصاد. كناف النهر فما نراه وما ندري أين وقع، فنخليه ندخل إلى البلد. ويصبح البازيار من سحر يخرج إليه يأخذه ويطلعه إلى الحصن إلى عند الوالد رحمه الله. ويقول له يا مولاي قد صقل هذا الصقيع قفاه طوال الليل، وقد أصبح يقط البلاذ فاركب ابصر أيش يعمل اليوم! وما كان يفوت هذا الباز شيء من الصيد من السمانة إلى الوز السمند والأرنب، وكان البازيار يشتهي أن يصيد به الكراكي والخرجل ما يتركه الوالد ويقول للخرجل والكراكي تصيدها بالصقور. وكان هذا الباز قد قصر عما نعهده من صيد سنة من السنين حتى أنه كان إذا أرسل وأخطأ لا يجيء إلى الدعو وهو عاجز ولا يستحم ولا ندري ما به، ثم صلح عما كان من تقصيره وصاد.

وأستحم يوماً فرفعه البازيار من الماء وقد تفرق ريشه بالبب عن جانبه، وإذا في جانبه سلعة قد اللوزة، فأحضره البازيار بين يدي الوالد وقالوا مولاي هذه التي قصرت بالباز وكادت تملكه ثم مسك الباز وعصرها خرجت مثل اللوزة يابسة وختم موضعها، وعاد الباز إلى الطيور بالسيف والنطعو كان شهاب الدين محمود بن قراجا صاحب حماة ينفذ كل سنة يطلب الباز اليحشور يمضي إليه مع البازيار يقيم عنده عشرين يوماً يتصيد به وبأخذه البازيار ويعود، فمات الباز بشيزر. واتفق أنني كنت قد زرت شهاب الدين إلى حماة، وأصبحت يوماً وأنا بحماة وقد حضر القراء والمكبرون وخلق عظيم من أهل البلد. فسألت من قد مات؟ قالوا بنت لشهاب الدين. فأردت الخروج خلف الجنازة فما حكني شهاب الدين ومنعني، وخرجوا في قبروا الميت في تل صقرون، فلما عادوا قال لي شهاب الدين ندري من هو الميت؟ قلت قالوا ولد لك. قال لا والله بل هو الباز اليحشور، سمعت انه قد مات، انفذت اخذته وعملت له تابوتاً وحنزة وقبرته، فإنه كان يستحق ذلك. وكان للوالد رحمه الله فهدة في الفهود مثل اليحشور في البزاة اصطادها وهي وحشية من أكبر ما يكون من الفهود، فأخذها الفهدا وقرمها واستجابها. وكانت تترك ولا تريد الصيد، وكانت تصرع كما يصرع المصاب بعقله وتزبد، ويقدم لها الخشفا فلا تطلبه ولا تريده حتى إذا شمته وعصته. وبقيت كذلك مدة طويلة نحواً منسنة، فخرجنا يوماً إلى الأزوار، فدخلت الخيل إلى الزور وأنا واقف في فم الزور، والفهدا في هذه الفهدة يقرب مني، فقام من الزور غزال وخرج إلي، فدفعت حصاناً كان تحني من اجود الخيل اريد

ارده إلى الفهدة، وعاجله الحصان، ندسه بصدرة رماه، فوثبت الفهدة صلاته فكأنها كانت نائمة وانتهت
وقالتخذوا الصيد ما اردتم! فكانت مهما قام لها من الغزلا ناخذته، ولا يستطيع الفهاد ضبطها فتجذبه ترميه،
ولا تقف كما تقف الفهود في طرفها بل وقت أن يقول قد وقفت تجدد عدواً أو تأخذ الغزال. وصيدنا
بشيزر الغزال الادمي وهو غزال كبير، فكنا إذا خرجنا بها إلى العلاة والأرض الشرقية وفيها الغزال
الأبيض، لا تترك الفهاد يركض بها حتى يمكنها ألا تجذبه ترميه، وتغير على الغزلان كأنها كانت ترى أنهم
خشوف لصغر الغزال الأبيض. وكانت هذه الفهد دون باقي الفهود في دار الوالد رحمه الله وله جارية تخدمها
ولها في جانب الدار قطيفة مطوية تحتها حشيش يابس، وفي الحائط سكة مضروبة يجيء الفهاد بها من الصيد
إلى الباب الدار يحطها وفيها المرتفه وتدخل إلى الدار إلى ذلك المكان المفروش لها فتنام فيه، وتحيء الجارية
تربطها إلى السكة المضروبة بالحائط وفي الدار والله، نحوى من عشرين غزال ادمي وأبيض وفحول ومعزي
وخشوف قد تولدت في الدار فلا تطلبهم ولا تروعهم، ولا تزول عن موضعها وتدخل إلى الدار وهي مسيبة
فلا تلفت إلى الغزلان. وشاهدت الجارية التي كانت تدور بها وهي تسرح جسمها بالمشط فلا تمنع ولا تنفر،
ورأيته يوماً وقد بالت على تلك القطيفة المفروشة لها وهي تتناهلها وتضربها حيث بالت على القطيفة ولا تهر
عليها ولا تضربها. ورأيته يوماً وقد أثارت من بين يدي الفهاد ارنين، وقد لحقت الواحدة وأخذتها عضتها
بفمها وتبع الأخرى فلحقتها وجعلت تضربها بيدها وفمها مشغول في الأرنب الأولة، فوقف عنها بعد ان
ضربتها بيديها عدة ضربات ومضت الأرنب. وحضر معنا في الصيد الشيخ العلم ابو عبيد الله الطليلي
النحوي رحمه الله، وكان في النحو سيويه زمانه، قرأت عليه النحو نحواً من عشر سنين وكان متولي دار
العلم بطرابلس.

فلما أخذ الإفرنج طرابلس نفذ الوالد والعم رحمهما الله استخلصا الشيخ ابو عبد الله هذا ويانس الناسخ،
وكان قريب الطبقة في الخط من طريقة ابو البواب، اقام عندنا بشيزر مدة ونسخ للوالد رحمه الله ختمتين. ثم
انقل إلى مصر ومات بها. وشاهدت من الشيخ عبد الله عجباً. دخلت عليه يوماً لأقرأ له فوجدته بين يديه
كتب النحو كتاب سيويهو كتاب الخصائص لابن جني وكتاب الأيضاح لأبي علي الفارسي وكتاب اللمع
وكتاب الجمل فقلتيا شيخ أبو عبد الله قرأت هذه الكتب كلها؟ قرأتها؟ لا والله إلا كتبها في اللوح وحفظتها،
تريد تدريجاً جزءاً وافتحه وأقرأ من أول الصفحة سطرأ واحداً. فأخذت جزءاً وفتحته وقرأت منه سطرأ،
فقرأ الصفحة بجمعها حفظاً حتى أتى على تلك الأجزاء جميعها، فرأيت منه أمراً عظيماً هو في طاقة
البشر. هذه جملة إعتراضية لا موضع لها من سياقة الحديث. وقد حضر معنا صيد هذه الفهدة وهو راكب في
رجليه اقدم، وفي الأرض شوك كثير وقد ضرب رجليه أدمها، وهو مشغول ينظر صيد الفهدة ولا يحس
بتألم رجليه - مشغول بما يراه من تسللها إلى الغزلان وعدوها وحسن صيدها.

باز أحمه العينين

وكان الوالد رحمه الله محظوظاً من الجوارح النادرة الفارهة، وذلك انما كانت عنده كثيرة فيندر منها الجراح الفاره، وكان عنده في بعض السنين باز مقرنص بيت أحمر العينين، فكان من أفره البازة، فوصل كتاب عمي تاج الأمراء أبي المتولد مقلد رحمه الله من مصر وكان مقامه بها في خدمة الأمر بأحكام الله يقولسمعت في مجلس الأفضل ذكر الباز الأحمر العينين، والأفضل يستخبر انحدث عنه وعن صيده. فنفضه الوالد رحمه الله مع بازياره إلى الأفضل. فلما حضر بين يديه قال لههذا هو الباز الأحمر العينين؟ قال نعم يامولاي قالأي شيء يصيد؟ قاليصيد السمانة والخرجلة وما بينهما من صيد فبقي هذا الباز بمصر مدة ثم أفلت وراح وبقي سنة في البرية في شجر الجميز وقرنص في البرية، ثم عاد اصطادوه وتصيدوا به. وقد أرسل على طير منه مصيبة عظيمة.

باز إفرنجي

وكان يوماً عند الوالد رحمه الله، وقد جاء إنسان من من فلاحي معرة النعمان معه باز مقرنص مكسر ريش الأجنحة والذنب في قدر العقاب الكبير، ما رأيت قط باز مثله وقاليا مولاي كت اصلي للدم بالنادوف فضرب هذا الباز على دلة في النادوف فأخذته وحملته إليك. فأخذه واحسن إلى الذي اهداه. ووصل البازيار ريشه وحمله واستجابه، وإذا الباز صائد مطابق مقرنص بيت قد افلت من الإفرنج وقرنص في جبل المعرة، فكان من أفره الجوارح واشطرها.

فرخ شاهين

وشاهدته يوماً وقد خرجنا معه رحمه الله إلى الصيد واستقبلنا على بعد رجل معه شيء ما نتحققه. فلما دنا منا وإذا معه شاهين فرخ من أكبر الشواهين واحسنها وقد خمش يده وهو حامله، فدلاه ومسك ساقيه ورجليه - والشاهين مدلي منشور الأجنحة. فلما وصلنا قاليا مولاي أصدت هذا الطير وقد جئت به إليك فسلمه الوالد إلى البازيار فأصلحه ما انكسر من ريشه. ولم يخرج مخبره مثل منظره، كان قد اتلفه الصياد بما عمل به. والشاهين هو الميزان ادنى شيء يعيبه ويفسده. وكان هذا البازيار صانعاً مجوداً في إصلاح الشواهين. كنا نخرج من باب المدينة إلى الصيد ومعنا جميع آلة الصيد حتى الشباك والقؤوس وانجرف والكلاليب لما ينجحر من الصيد، ومعنا الجوارح والبزاة والصقور والشواهين والفهود والكلاب، فإذا خرج إحدهما عن القصد تنجح البازيار وأشار بيديه إلى النحو الذي يريد فيرجع والله الشاهين من وقته إلى ذلك النحو ورأيته وقد أدار الشاهيناً على قطعة من الصلاصل نازلة لي مرج فلما أخذ الشاهين طبقته دق له الطبل فطارت وانقلب عليها الشاهين ضرب رأس صلصلة قطعه، وأخذها ونزل. فدرنا والله على ذلك الرأس ما وجدناه، وأثره قد وقع على بعد في الماء لأننا كنا بالقرب من النهر. وقال له غلام يقال له أحمد بن مجير لم يكن ممن يركب معها مولاي اشتهيت أبصر الصيد. قالقدموا لأحمد فرسائركبه ويخرج معنا. فخرجنا إلى صيد الدراج، فطار ذكر وتر كما جرت العادة، وعلى يد الوالد رحمه الله اليحشور فأرسله عليه، فطار على

الأرض والحشيش يضرب صدره والدراج قد ارتفع ارتفاعاً كبيراً. فقال له أحمديا مولاي وحياتك كان يتلاه به حتى أخذه.

كلاب صيد

وكان يجيئه من بلاد الروم الزغارية كلاب جياد ذكور وأناث. فكانت تتوالد عندنا وصيدها الطير طبع فيها. شاهدت منها جروة صغيرة قد خرجت خلف الكلاب التي مع الكلابي، فأرسل بازاً على دراجة فبنجت في غلفاء في جرف النهر فأرسلوا الكلاب على الغلفاء لتطير الدراجة، وتلك الجروة واقفة على الجرف. فلما طارت الدراجة وثبت الجروة خلفها من على ذلك الجرف. فوقع في وسط النهر، وما تعرف الصيد وما صادت قط. ورأيت كلباً من هذه الزغارية وقد بنجت حجلة في الجبل في ببح صعب وقد إليه الكلب وأبطأ. ثم سمعنا حشكة في داخل البنج. فقال الوالد رحمه الله في البنج وحش وقد قتل الكلب. ثم بعد ساعة خرج الكلب يجر رجل ابن آوى، وكان في البنج قد قتله وجره أخرجه إلينا. وكان الوالد رحمه الله قد خرج إلى اصبهان إلى دركات السلطان ملك شاه رحمه الله فحكي لي قال لما قضيت أشغالي من عند السلطان وأردت السفر أردت أن استطحب معي جارحاً اتفرج به في طريقي، فجاءوني ببزاة ومعها ابن عرس معلم يخرج الطيور من البنج، فأخذت صقوراً تصيد الأرناب والحبارى، واستصعبت مداراة البزاة في تلك الطريق البعيدة الشاقة. وكان عنده رحمه الله من الكلاب السلوقية كلاب جياد، أرسل يوماً الصقور على الغزلان والأرض غب مطر ثقيلة بالوحل، وأنا معه صغير على بردون لي، وخيلهم قد وقفت من الركض في الطين وبرذوني لحفتي عليه مستظهر، وقد صرعت الصقور والكلاب والغزال. فقال لييا أسامة الحق الغزال ونزل أمسك من رجله إلى أن نجى ففعلت، ووصل هو يرحمه الله فذبح الغزال ومعه كلبة صفراء جواد يسمونها الحموية وخرج يهرول بها حتى رأت الغزلان، وأرسلها عليها اصطادات غزلاً آخر. وكان رحمه الله مع ثقل جسمه وكبر سنه وأنه لا يزال صائماً يركض نهاره كله. وكان لا يتصيد إلى على الحصان أو اكديش جواد ونحن معه أربعة أولاده نتعب ونكل وهو يضعف لا يكل ولا يتعب ولا يقلر وشاقي ولا صاحب جنب ولا حامل سلاح يقصر في الركض على الصيد. وكان لي غلام اسمه يوسف معه رمحي ودفتي ويجب حصاني فلا يركض على الصيد ولا يتعبه، فيحرد الوالد عليه، فعل ذلك مرة بعد مرة. فقال له الغلاميا مولاي ما ينفعك احد من الحاضرين، والعياذ بالله مثل ابنك هذا، فدعني اكون خلفه بحصانه وسلاحه، ان احتجته وجدته، واحسب اني ما أنا معكم فما عاد يلومه ولا ينكر عليه كونه ما يركض على الصيد.

والد أسامة يتوقف عن الصيد ليراقب الإفرنج

ونزل علينا صاحب انطاكية وقتلنا ورحل عن غير صلح، فركب الوالد رحمه الله إلى الصيد واخرهد ما بعد عن البلد فتبعهم خيلنا، فعادوا عليهم والوالد قد ابعده عن البلد. ووصل الإفرنج إلى البلد والوالد قد طلع

على تل سكنين يراهم وهم بينه وبين البلد، وما زال واقفاً على التل إلى ان انصرفوا عن البلد وعاد إلى الصيد.

الفرق بين الخيول العربية والبراذين

وكان رحمه الله يطرد اليحامير في ارض حصن الجسر فصرع منها يوماً خمسة او ستة على فرس له دهماء تسمى فرس خرجي باسم صاحبها الذي باعها كان اشتراه الوالد منه بثلاثمائة وعشرين ديناراً، فطرد آخر اليحامير فوقعت يدها في حفرة مما يحفر للخنازير فانقلبت عليه كسرت تروفته، ثم قامت ركضت قدر عشرين ذراعاً وهو مطروح، ثم عادت وقفة عند رأسه تنحب وتسهل حتى قام وجاءه الغلمان اركبوه، فهذا فعل الخيل العربية. وخرجت معه رحمه الله الى نحو الجبل لصيد الحجل، فنزل غلام له اسمه لؤلؤ رحمه الله لبعض شغله، ونحن قريب من البلد من بكره وتحت برذون، فرأى ظل تركشه اجفل منه فرماه وانفلت، فركضت والله عليه انا وبعض الغلمان من بكره الى بعد العصر الى ان ألجأناه الى جشار في بعض الازوار، وقام الجشاريه مدوا له الحبل وقبضوه كما يقبض الوحش، وأخذته وعدت والوالد رحمه الله واقف في ظاهر البلد ينتظرنى ما يصيد ولا ينزل في داره، فالبراذين بالوحش اشبه مما هي بالخيول.

شيخ يعترض على صيد الطيور

حكى لي رحمه الله قال كنت اخرج الى الصيد وبخرج معي الرئيس ابو تراب حيدر بن قطر متر رحمه الله وكان شيخ الذي حفظ عليه القرآن وقرأ عليه العربية. فكنا اذا وصلنا موضع الصيد ينزل عن الفرس ويجلس على صخره يقرأ القرآن ونحن نتصيد حوله، فاذا فرغنا من الصيد ركب وسار معنا فقال يوماً يا سيدنا انا جالس على صخره واذا حججه قد جاءت وهي تتهنكف وهي معيبة إلى تلك الصخرة التي أنا عليها، دخلت وإذا الباز قد أتى خلفها وهي بعيدة منها، فنزل مقابلي ولؤلؤ يصيح عينك يا سيدنا، وجاء وهو يركض وأنا أقول اللهم استر عليها. فقال يا سيدنا أين الحجلة؟ قلت ما رئية شيئاً، ما جاءت إلى هنا، وترجل عن فرسه ودار حول الصخرة وطلع تحتها فرأها. فقال أقول الحجلة ها هنا تقول لا! وأخذها يا سيدنا كسر رجلها ورماها إلى الباز، وقلبي يقطع عليها.

صيد الأرانب

وكان هذا لؤلؤ رحمه الله أخبر الناس بالصيد، شاهده يوماً وكانت جاءتنا من البرية أرانب جالية، فكنا نخرج نضطاد منها شيئاً كثيراً، وكانت أرانب صغار حمراء فشاهده يوماً وقد جلى عشرة أرانب طعن التسعة بالبالة اخذها، ثم جلى أرنب عاشر. فقال له الوالد رحمه الله دعها، تقيمها الكلاب تنفرج عليها. فأقاموها وأرسلوا عليها الكلاب، فسبقت الأرنب وسلمت. فقال لؤلؤ يا مولاي لو كنت تركني طعنيتها وأخذتها. وشاهدت يوماً أرنباً تورناها وأرسلنا عليها الكلاب فانجرح في الأرض الحبيبت، فدخلت كلبة

سوداء خلفها بالحجر، ثم خرجت في الحال وهي تعوص، ثم وقعت فماتت. فما إنصرفنا عنها حتى تفسخت وماتت وقمرأت، وذلك أنها لسعتها حية في الحجر.

باز يصطاد زرزورا

ومن عجيب ما رأيت من صيد البزاة اني خرجت مع والوالد رحمه الله عقيب مطر قد تتابع ومنعنا من الركوب أياما. فأمسك المطر فخرجنا بالبزاة نريد طير الماء، فرأينا طيور ممرجة في المرح تحت شرف، فتقدم الوالد فأرسل عليها بازاً مقرنصاً بيت فطلع مع الطيور فصاد منه ونزل فما رأينا معه شيء من الصيد فنزلنا عنده فإذا هو اصطاد زرزوراً وطبق كفه عليه فما جرحه ولا أذاه فنزل الباز يار خلصه وهو سال.

صيد الوز والحباري

ورأيت من الوز السمند حمية وشجاعة كحمية الرجال وشجاعتهم، وذلك أننا أرسلنا الصقور على رف وز سمند ودققنا الطبول فطار، ولحقت الصقور وزة حطتها من بين الوز، ونحن بعيداً منها فصاحت، فترحل من الوز إليها خمسة ستة طيور يضربون الصقور بأجنحتها، فلولا نبادرهم كانوا خلصوا الوزة وقصوا أجنحة الصقور بمناقيرهم. وهذا ضد حمية الباري، فإنها إذا قرب منها الصقر نزلت إلى الأرض وكيف دار استقبلته بذنبها، فإذا دنا منها سلحت عليه، بلت ريشه وملأت عينه وطار، وإن أخطأته بما تفعله أخذها.

صيد اليممة

ومن أغرب ما صاده الباز مع الوالد رحمه الله انه كان على يديه باز غطراف فرخ وعلى خليج ماء عيمة وهي طير كبير مثل لون البلشون إلا أنها أكبر من الكركي - من طرف جناحها إلى الطرف الآخر أربعة عشر شبراً فجعل الباز يطلبه، فأرسله عليه ودق الطبل فطار ودخل فيه الباز، أخذه ووقع في الماء. فكان ذلك سبب سلامة الباز، وإلا كان قتله بمنقاره، فرمى غلام من الغلمان نفسه بالماء بثيابه وعدته مسك العيمة وأطلعها. فلما صارت على الأرض صار الباز يبصرها ويصيح وطار عنها وما عاد يعرض لها، ولا رأيت باز سوى ذلك اصطادها، فإنها كما قال أبو العلاء بن سليمان في العنقاء " أرى العنقاء تكبر إن تصطاد " .

سبع يخاف أجراس الباز

وكان الوالد رحمه الله يمضي إلى حصن الجسر وهو كثير الصيد فيقيم به أياماً ونحن معه نصيد الحجل والدراج وطير الماء واليحمير والغزلان والأرانب. فمضى يوماً إليه فركبنا إلى صيد الدراج فأرسل باز يحمله ويصلحه مملوك أسمه قولاً على دراجة ومضى نقولاً يركض وراءه وقد بنج الدرج في غلفاء، وإذا صياح

نقولاً قد ملأ الأسماع وعاد يركض. قلنا مالك؟ قال لسبع خرج من الغلفاء التي وقع فيها الدراج فخلت الباز وانهمزت. وإذا السبع أيضاً ذليل مثل نقولاً لما سمع أجراس الباز خرج من الغلفاء منهزماً إلى الغاب.

صيد السمك

وكنا نصيد ونعود ننزل على بوشير نهر صغير بالقرب من الحصن وننغد نحضر صيادي السمك فترى منهم العجب، فيهم من معه قصبة في رأسها حربة لها جبة مثل الخشوت، ولها في الجبت ثلاثة شعب حديد طول كل جعبة ذراع. وفي رأس القصبة خيط طويل مشدود إلى يده يقف على جرف النهر وهو ضيق المدى، ويصر السمكة فيزرقها في تلك التي فيها الحديد فما يخطئها، ثم يجذبها بذلك الخيط فتطلع والسمكة فيها، وآخر من الصيادين معه عود قدر قبضه فيه شوكة وفي طرفه الآخر خيط مشدود إلى يده، ينزل يسبح في الماء يبصر السمكة يخطفها بتلك الشوكة ويخليها فيها ويطلع ويجذبه بذلك الخيط يطلع الشوكة والسمكة وآخر ينزل ويسبح ويمر يده تحت الشجر في الشطوط من الصفصاف على السمكة حتى يدخل أصابعه في خواشيم السمكة وهي لا تتحرك ولا تنفر ويأخذها ويطلع، فكانت تكون فرجتنا عليهم كفرجتنا على صيد البازة.

غنائم البازيار وتوالى المطر والهواء علينا أياماً ونحن في حصن الجسر، ثم أمسك المطر لحظة فجاءنا غنائم البازيلر وقال للوالد البازة جياع جيدة للصيد. وقد طابت وكف المطر، ما تركب؟ قال لي فركبنا فما كان بأكثر من أن خرجنا إلى الصحراء وفتحت أبواب السماء بالمطر. فقلنا للغنائم أنت زعمت إنما طابت وصحت حتى اخرجتنا في هذا المطر! قالما كان لكم عيون تبصر الغيم ودلائل المطر؟ كنتم قلتم لي تكذب في حيتك ما هي طيبة ولا صاحبة! وكان هذا غنائم صانعاً جيداً في إصلاح الشواهين والبازة خبير بالجوارح، ظريف الحديث طيب العشرة، قد رأى من الجوارح ما يعرف وما لا يعرف. خرجنا يوماً إلى الصيد من حصن شيزر فرأينا عند الرحا الجلالي شيئاً وإذا كركي مطروح على الأرض، فنزل غلام قلبه وإذا هو ميت وهو حار ما برد بعد فآه غنائم فقالها قد اصطاده الزريق. فنش تحت جناحه وإذا جانب الكركي مثقوب وقد أكل قلبه. فقال غنائم هذا جارح مثل العوسق يلحق الكركي يلصق تحت جناحه يقب أضلعه ويأكل قلبه.

وقضى الله سبحانه وتعالى أنتقل إلى خدمت أتابك زنكي رحمه الله. فجاءه جارح مثل العوسق أحمر المنسر والرجلين جفونه عينيه حمر وهو من أحسن الجوارح فقالوا هذا البزيق. ما بقي عنده إلا أياماً قلائل وقرض السيور بمنسره وطار.

صيد حمير الوحش

وخرج الوالد رحمه الله إلى صيد الغزلان وأنا معه صغير فوصل وادي القناطر وإذا فيه عبيد حرامية يقطعون الطريق فأخذهم وكنفهم وسلمهم إلى قوم من غلمانهم يوصلوهم إلى حبس في شيزر. فأخذت أنا خشت من

بعضهم وسرنا في الصيد، وإذا عانة حمير وحش. فقلت للوالدي مولاي ما أبصرت حمير الوحش قبل اليوم، عن أمرك أركض أبصرهم. فقالوا فعل. وتحتي فرس شقراء من أجود الخيل، فركضت وفي يدي ذلك الخشت الذي أخذته من الحرامية، فصرت وسط العانة فأخذت منها حميراً وصرت أطعنه بذلك الخشت فلا يعمل فيه شيئاً لضعف يدي وقلة مضاء الحرية. فرددت الحمار حتى ردتته إلى أصحابي فأخذوه. فعجب والدي ومن معه من عدوا تلك الفرس. فقضى الله سبحانه أني خرجت يوماً أتفرج على مهر شيزر وهي تحتي ومعني مفرى يشد مرة ويقرأ مرة ويغني مرة، فنزلت تحت الشجرة ودفعت الفرس إلى الغلام فعمل فيها شكلاً. وكان إلى جانب النهر فنقرت فوقعت في النهر على جنبها. وكلما أردت تقوم تعود تقع في الماء لأجل الأشكال. وكان الغلام صغيراً لا يقدر على تخليصها. ونحن لا نعلم ولا ندري. فلما قاربت الموت صاح بنا فجئناها وهي في آخر رمق قطعنا شكاها وأطلعناها فماتت، وما كان الماء يصل إلى عضدها إنما الشكال أهلكتها.

يخاف على الباز من الغرق

وخرج يوماً الوالد رحمه الله إلى الصيد وخرج معه أمير يقال له الصمصام من أصحاب فخر الدين الملك بن عمار صاحب طرابلس على سبيل الخدمة وهو رجل قليل المخبرة بالصيد. فأرسل الوالد بازاً على طير الماء فأخذ منها طيراً ووقع في وسط النهر، فجعل الصمصام يدق يداً على يد ويقوللا حول ولا قوة إلى بلاه، كيف كان خروجي في هذا اليوم؟ فقلت لهياصمصام تخاف على الباز أن يغرق؟ قال نعم قد غرق بطة هو حتى يقع في الماء ولا يغرق؟ فضحكت وقتلتنا ساعة يطلع فأخذ الباز رأس الطير وسبح وهو معه حتى طلع به. فبقي الصمصام يتعجب من ذلك ويسبح الله سبحانه ويحمده على سلامة الباز.

لكل حيوان أجله

ومنايا الحيوان مختلفه الالوان قد كان الوالد رحمه الله أرسل زرقاً أبيض على درجه، فوقعت الدراجة في غلفاء ودخل معها الزرق، وفي الغلفاء ابن اوى أخذ الزرق قطع رأسه، وكان من خيار الجوارح وافرهما. ورايت من منايا الجوارح وقد ركبت يوماً وبين يدي غلام لي معه باشق فرماه على عصفير فأخذ عصفورا. وجاء الغلام ذبح العصفور في رجل الباشق فنفض الباشق رأسه وتقياً دماً ووقع ميتاً، والعصفور في تلفه مذبوح فسبحان مقدر الاجال. واجتزت يوماً من باب فتحناه في الحصن لعماره كانت هناك ومعني زر بطانه فرأيت عصفورا على حائط انا واقف تحته فرميته ببندقية فأخطأته وطار العصفور وعيني الى البندقية، فنزلت مع الحائط وقد أخرج عصفورا رأسه من ثقب في الحائط فوقعت البندقية على رأسه فقتلته ووقع بين يدي فذبحته، وما كان صيده عن قصد ولا اعتماد. وأرسل رحمه الله يوماً الباز على أرنب قامت لنا في زور كثير الشوك فأخذها وانفرطت منه فجلس على الارض وراحت الارانب، فركضت أنا فرسا دهماً تحتني من جيات الخيل لأرد الأرنب، فوقت يد الفرس في حفره فانقلبت علي، فملأت يدي ووجهي من ذلك الشوك

وانفسخت رجل الفرس .ثم انتقل الباز من الأرض بعدما أبعدت الأرنب لحقها اصداها !فكأنه كان قصده اتلاف فرسي واذيتي بالوقوع في الشوك

صيد الخنزير

فأصبحنا يوما في اول يوم من رجب صياما، فقلت للوالد رحمه الله اشتهي أخرج أتشاكل بالصيد عن الصيام .قال أخرج، فخرجت انا وأخي بماء الدوله ابو المغيث منقذ رحمه الله ومعنا بعض البزاه الى الأزوار فدخلنا في سوس، فقام لنا خنزير ذكر فطعنه أخي، جرحه ودخل ذلك السوس فقال أخي الساعه يكره الجرح ويخرج استقباله اطعنه اقله .قلت لاتفعل يضرب فرسك يقتلها .نحن نتحدث والخنزير خرج يريد زورا آخر، فالتقاه أخي طعنه في سنامه أنكسرت فيه عاليه القنطاريه التي طعنه بها ودخل تحت فرس شقراء تحته عشراء محمله شعلاء ضربها رماها ورماه .فأما الفرس فأنفست فحذاها وتلفت، وأما هو فأنفكت اصبعه الخنصر وانكسر خاتمته .وركضت انا خلف الخنزير فدخل في سوس محصب وخناث فيه باقوره نائم ما أراها من ذلك الغاب فقام منها ثور في صدر حصاني فندسه، فوقع ووقع الحصان وانكسر لجامه وقيمت أخذت الرمح وركبت ولحقتة وقد رمى نفسه في النهر، فوقف على جرف النهر ورزقته بالرمح فوقع فيه وأنكسر منه قدر ذراعين وبقيت الحربه فيه وسبح الى ناحيه النهر، فصحنا بقوم من ذلك الجانب يضربون لبنا لعمارت بيوت في قريه لعمي، فجاءوا ووقفوا عليه وهو تحت جرف لايقدر يطلع منه فجعلوا يرمونه بالحجاره الكبار حتى قتلوه وقلت لركابي لي أنزل اليه، فقلع عدته وتعرى وأخذ سيفه وسبح اليه ثم قتله وسحب برجله وأتى به وهو يقول عرفكم الله بركات صيام رجب !استفتحناه بنجس الخنزير .ولو كان للخنزير ظفر ناب مثل الاسد كان أشد بأسا من الاسد فلقد رأيت منها خنزيره قد أقمناها عن جريات لها وواحد يضرب حافر فرس غلام معي بفمه وهو في قد جرو القط، فأخذ الغلام من تركشه نشابه ومال اليه طعنه بها ورفعه بالنشابه، فعجبت من قتاله وضربه حافرا لفرس وهو بحيث يحمل في سهل نشاب .

صيد الحجل

كان من عجائب الصيد اننا كنا نخرج الى الجبل الى صيد الحجل ومعنا عشره بزاه نتصيد بها النهار كله، والبازياريه مفترقه في الجبل ومع كل بازيار فارسان ثلاثه من المماليك، ومعنا كلابزيان اسم الواحد بطرس ولآخر زرزور باديه وكلما ارسل البازيار على حجله وبنجت قد صاحوا يا بطرس !يعدو اليهم مثل الهجين .كذلك النهار كله يعدو من جبل الى جبل هو ورفيقه، فاذا اشبعنا البزاه ورجعنا أخذ بطرس قلاعه وعدا خلف واحد من المماليك ضربه بها، اخذ الغلام قلاعه وضرب بطرس .فلا يزال يطارد الغلمان وهم ركاب وهو راجل ويرميهم باقلاع من الجبل الى باب المدينه ما كأنه كان نماه كله يعدو من جبل الى جبل .

الكلاب الزغارية

ومن عجائب الكلاب الزغارية أنها ما تأكل الطيور ولا تأكل منها إلى رؤوسها وأرجلها التي ما عليها لحم والعظام التي أكلت البزات لحمها. وكان للوالد رحمه الله كلبة سوداء زغارية يضع الغلمان بالليل عاى رأسها السراج ويقعدون يلعبون بالشطرنج وهي لا تتحرك ولا تزول حتى عمشت عيناها وكان الوالد يجرى على الغلمان ويقول لقد أعميتم هذه الكلبة! ولا ينتهون عنها. وأهدى الأمير شهاب الدين مالك بن سالم بن مالك صاحب القلعة للوالد كلبة عروفاً ترسل تحت الصقور على الغزلان فكنا نرى منهم العجب .

الصيد بموجب النظام

وصيد الصقور بالترتيب يرسل في الأول المقدم فيعلق بأذن غزال يضربه، ويرسل العون بعده فيضرب غزالاً آخر، ويرسل العون الآخر فيفعل كذلك، ويرسل الرابع فيضرب كل صقر منها على غزال، فيأخذ المقدم أذن غزال ويفرده من الغزلان فترجع الصقور جميعها إليه وتترك تلك الغزلان التي كانت تضربها. وهذه الكلبة تحت الصقور فيتنفق أن يظهر العقاب فتحل الصقور عن الغزال فيمضي الغزال وتدور الصقور . فكنا نرى تلك تلك الكلبة قد رجعت عن الغزلان وقت رجوع الصقور وهي تدور تحت الصقور في الأرض كما تدور الصقور في الهواء حلقة، ولا تزال تدور تحتها حتى تنزل الصقور إلى الدعو، فحينئذ تقف وتمشي خلف الخيل .

صيد الغزلان والدراج

وكان بين شهاب الدين مالك وبين والدي رحمهما الله مودة ومواصلة بالمكاتبات والرسول، فنفذ إليه يوماً يقول خرجت إلى صيد الغزلان فاصطدنا منها ثلاثة آلاف خشف يوم . وذلك أن غزلان عندهم في أرض القلعة كثيره وهم يخرجون وقت ولاد الغزلان خيالة ورجالة فيأخذون منها ما قد ولد تلك الليلة وقبلها بليلة وثلاث ويقشونها كما يقش الحطب والعشب. والدراج عندهم كثير في الأزوار عاى الفرات . وإذا شق جوفه الدراجة وأزيل ما فيه وحشي بالشعر لا تغير رائحتها أياماً كثيرة. ورأيت يوماً دراجة قد شق جوفها وأخرجت قانصتها وفيها حية قد أكلت نحو من شبر. وقتلنا مرة ونحن نصيد حية قد شق جوفها وأخرجت قانصتها وفيها حية قد أكلتها نحو من شبر. وقتلنا مرة ونحن في الصيد حية خرج من جوفها حية قد بلعتها صحيحة دونما يبسير. ففي طباع جميع الحيوان اعتداء القوي على الضعيف والظلم من شيم النفوس فإن تجد